عندما تصبح الوَحدة وطنا
د. ريمه عبد الإله الخاني
قصص قصيرة

عندما تصبح الوَحدة وطناً

مجموعة قصصية

د. ريمه عبد الإله الخاني[1]

1 الحقوق محفوظة، يمنع النسخ والنقل دون مراجعة المؤلف.

إهداء:

إلى المترجمة والأديبة سنا تيسر الخاني التي دفعت العمل إلى الأمام قدما.

تقديري واحترامي

شكر وعرفان:

لكل من كان له نصيب في البث والحصول على امتياز السرد الذي يخص حكايته، فرواها، أو أوحى بها.

المؤلفة

قصص قصيرة

1- أمي الجديدة

2- مقلوب الكيس الأصفر

3- همسة حبيب

4- لقمة مسبحة

5- وجه بلا ملامح

6-وحدنا معا

7-كوسا محشي

8-النمل الأحمر

9-حاولت أن أنحرف

10-أنا وبيل غيتس

11-قُبلةُ الحياة

12-سنونو الأحلام

13- الخروج من الشرنقة

14-قبيل لحظة الإعدام

15-أين عيناي؟

16- جسر الوصول الأخضر

17-الحب على طريقتي..

18-سيجارة

19- عندما تصبح الوِحدة وطنا!

20-استئصال طموح

21-الباب المكسور

22- عدت ولم أعد

قصير الروايات

22-بلوى الكتب

23- مسمار شوكورول

1-أمي الجديدة

يؤلمني جدا كثرةِ تأنيبَها لي وزجرِها القاسي، كأن قلبها خلاَ من الرحمة إلا قليلا، حتى لتجد الفصولَ الأربعة حضرت أمامك من حيث لا تدري معانيها، تحِن على من لا يستحق، نعم تحن.. وبقوة أيضا وتقسو على من يستأهل العناية.

تخدش خاطري وتؤلمه، ملاحظات مديرتي الصعبة التطبيق:

-ابتلع لقمتك بسرعة، قبل أن يرن جرس المدرسة للانصراف للصفوف.

-لا تنظر إليّ وأنا أكلمك ..فقط انظر إلى الأرض..

الى آخر التوصيات والأوامر.. صعبة التطبيق، آه لوتدري..

كثرت أوامرها للمدرسات بفرض الحزم على جهدي اليتيم ، لقد كان مدعاة للدهشة !.لماذا أنا بالذات؟، وكأنهم عصابة زنابير تتكاثر على قطعة حلوى!.

تمنيت أن أهمس لها يوما:

. أنا يتيم.. والله يتيم، و يتيم جدا، لم أتعود على كلمة ماما أبدا، أرتمي بين بيت وبيت وسرير

و سرير، فهل هذا يعني لك شيئا؟.

تتعالى أنفاسي عند المرض، أسمعها وحدي، يعطل حواسي النعاس، لكأنني دوما بحاجة لنوم عميق عميق، قطعة من اللحم تتنفس!.

لقد أربك كل هذا ذاكرتي، وجعلها تَخذلُني مرات ومرات..

أقدام أقربائي تركلُني، في السر والعلن!، حتى إدارة السكن الداخلي في مدرستي باتوا الآن يقومون بنفس الدور البشع هذا، تمضي الأيام جافة خشنة، وكأنني وحش مفزغ أخرج لهم كل يوم ليأكلهم فاغرا فاه ، وعليهم التخلصَ منه.

لن أنسى أبداً، عندما أعادتني أختي بيديها الصغيرتين إلى المبيت في السكن الداخلي للمدرسة فعدت محملا بحاجياتي المهترئة، كخرقة بالية يجب إلقاؤها في سلة القمامة، كل هذا لأنني اعترضت على سياسة الدار..

لقد أبت أن تحتويني...متذرعة بأن زوجها سيدعوها لتلحق به وتسافر إليه يوما ما، لم أصدق، لا لم أصدق أبدا، لكن لاخيار لدي ..

أنا جوعان، جَوعان جدا ، حتى الحشرة تجد ما تأكله عندما تبحث.. عن طعام، إلا أنا..

إذلالهم لأختي حينها كان غريبا لافتا، وجدتني اود صفعهم، ولكن يدي خانتني، فاستعطافِها لإدارة السكن الداخلي.. كان غريبا أكثر.. حيث أعادتني إليه مدعية ضرورةَ ذلك بإصرار عجيب.

كان مشهدا سيئا للغاية بكل المقاييس...لم أجد له حلا أبدا، ولاحيلة تنقذني من عبثهم بقلبيَ الصغير حتى لم أجد حلا لمشكلة ذاكرتي بعد، إنها تتذكر كل شيء محزن!، لقد ابتلعتُ ماحدث لأنه قدري.

قد سامحتْني يوما ما المسؤولة عن الغذاء بعد اطلاع مديرتي بدقة ومن جديد، على تفاصيل حياتي كما وصلني من همسات أصدقاء الصف المدرسي، حيث أزعجها جدا أمري، خاصة عندما جمعتُ بعض بقايا طعام التلاميذ المتراكمة جانب الجدار القريب، كانت طازجة جدا، ولذيذة جدا، لقد منعهم شبعهم من إتمامها، اعتقدتْ للأسف يومها أنني أسرق.. قائلة:

– ألسنا نقدم لك من الطعام ما يكفيك؟

ما كان لي أن أقول، وكيف أقول ولا أحد يسمع.؟ ..أنا جوعان والله جوعان..

في حرم المدرسة، قفزت إلى ذهني فكرة ماكرة، نعم يجب أن أجد حلا ، من قبل مديرة لا تدري بحالي ولا تعرف...لم أعد صغيرا.. نعم لم أعد صغيرا أبدا.

رأيتها ذات يوم بكامل أناقتها، وبريح المسك الأخاذ المنعش، بحلتها جديدة ، كانت مسرورة مبتسمة على غرار الأيام الأخرى، أسعدني حالها لا أدري لماذا..

جميل هو ذاك الجمال الذي يُخفي حزما في قرارته، وحكمة في كلامه...وحنانا في ثنايا روحه...الحلوة، هكذا كنت أحبها كلاً شاملا.

طرقت الباب.. حيث قررت حوارها وسؤالها..

. تفضل

دخلت على أطراف أصابعي فالأرض كانت لتوها مسحت ونظفت، تلمع لمعانا رائعا، ورائحة المواد السحرية تعبق في المكان، وهي وراء مكتب الإدارة تظهر رائعة الجمال، متصدرة المقعد برزانة لافتة:

. أنا الطالب أحمد.. ممكن دقائق من فضلك؟

. أهلا يا أحمد تفضل بالجلوس

. هل أجلس فعلا؟؟؟؟

. نعم نعم أنت الآن في مكتبي، أنت ضيفي الآن.

دخلت المدرّسة "حسنا" متعجبة من وضعي هذا قائلة:

. قف ...طلاب آخر زمن. صحيح إنها قلة أدب..

قدمت أوراقها وانصرفت وسط نظراتها المتفحصة، تمسحني من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ، مشمئزة مني. وسط لامبالاة مديرتي هدى الغالية.. وقفت حينها حائرا..

. إجلس...ماذا دهاك .؟

. كنت أسأل، لو أنت راضية عني.!

. راضية.. ولماذا ؟، هل كنت أمك يوما.؟، ههه أنت بخير وفي تحسن مستمر اطمئن ، ثابر صعودا

. كنت أفكر فعلا أن أقول لك...... مـ.... ليس قصدي تماما.. ولكن..

وحدثت نفسي تائها في روعة اللحظة، هل أنا كبير لهذا الحد الذي يمنعني من البحث عن أم؟ فأنا لم أتجاوز الاثنتي عشرة سنة من العمر فأنا في السادس الابتدائي.. أقرأ كل ما تطاله يدي من جرائد ومزق وبقايا...فمكتبة المدرسة ليست غنية كفاية كما توقعت، أنا مفكر..

هكذا كانت أمي كما قالوا لي.. كانت قارئة ممتازة...لكن يد القدر خطفها مني بذاك المرض القاتل...

نظرت إلي في تأمل بديع، وقد صغرت عيناها حتى لم أعد أرى البؤبؤ حالك السواد.. والجميل..

قالت:

.آهٍ على أولاد آخر الزمان، لم يعودوا يتصلوا بي أبدا، أنا علمتهم الاستقلالية وأنا تجرعت سمّها.

. بإمكانك تعديل البوصلة الآن، اتصلي بهم .

. سيجاملونني، ويقولون لي أحلى الكلام، وينصرفون كالعادة، كلامٌ في الهواء، لامعنى له ولا تطبيق واقعي أبدا، إن أسوأ ما في زمننا هذا بضاعة الكلام وبيعه في أسواق النخاسة...والمصيبة أن هناك من يشتريه..

. بكل الأحوال نحن علمناهم الجفاء لأنهم انصرفوا قبل أن ندعم الخيط بيننا، هي المحبة الحقيقية الحوار النقد بروح متفهمة، هكذا علمتنا الكتب.. لقد دعمنا نجاحنا حتى وصلنا لتلك المراكز التي أضاعت كثيرا من المحبين، والأوقات الطيبة، تدين وندان... .

– ندين وندان....مم بكل الأحوال أظن أن ما يفكرون فيه، هو ألا يعلقون أرواحهم بنا، ليستطيعوا المضي بقوة لهدفهم.

– أقصد هذا ما جرى ...المهم، أي خيط، خيط الوفاء والمحبة، أم خيط التربية والقيم أم....الخ

. عن ماذا تتحدث؟، وهل مثلك يعرف ماذا يعني والدين؟.

انكمشت في الكرسي مخدرا بقهري، وكأن دبوسا ثخينا وخز خاصرتي، ففقأ عيني!، وحاولت لملمة الكلام من جديد:

– نعم فأنا مهمَل .. يتقاذفني الأهل كخرقة وسخة، كعار أبديّ، لا يدرون كيف يتخلصون مني، كل هذا بعد وفاة أمي.. رحمها الله كان عمري حينها ثلاث سنوات ، ربما تذكرت بعض ملامحها فقط.

– لماذا يحدث كل هذا الآن؟ لا أدري.. من قال لهم أن ينجبون كل هؤلاء الأولاد ويتزوجون كل هذه الزيجات!

قلت:

. هل؟...

. آه من الوحدة سم ناقع، مر علقم...نستيقظ على صوت شكواه منا، متأخرين جدا...

. هل؟..

–ماذا تريد؟

. هل تسمحين لي بأن أقول...، أقصد... أن تتصلي بأولادك.. نتصل بهما معا.

. بصفتك ماذا؟.

. بصفتي مثل ابنك مثلا.. ، أو ولأنك قدوتي.. مثلا..

نظرت إلي نظرات طويلة ، وحبست دمعها، لم أجدها يوما بهذا الضعف، كل هذا الجبل الشامخ الذي كنت أهابه دوما، يقف أمامي عاجزا محتارا، هل يفعل الشوق بنا هكذا؟، أم هو الألم والندم.!

هل تسمحين لي بالاتصال بهم؟

. ماذا ستقول لهم؟

ملكت حينها شجاعة الدنيا.. وكأنني تناولت ثمار محبة فريدة لايعرفها غيري، وأمسكت بتلابيب ثقتي بنفسي وفعلتها..

. ألو الوالدة مشتاقة لكم جدا، فإن أحببتم تعالوا..

. يا ولد هات أمي، من هذا؟.

. ابني الجديد...وأنتم أبنائي كلكم وكل يوم سيكون لي ابن جديد، فكلهم بحاجة إلي لكنني لست بحاجتكم.

. ابنٌ جديد...هل تزوجتِ يا أمي ولم تخبريننا؟.

– هل هذا كل ما فكرتم به الآن؟ طبعا لا..

–الحمد لله.

هذا ما تناهى لسمعي...حيث توقف الحوار عبر الهاتف بلا شرح لما حدث، ولا تفسير لسبب توقفه.

خرجنا معا إلى الحديقة معا، كان نبات اللافندر يبث ريح عطره الشذي.. ينثر حولنا عبيره الرقيق باحتفال رائع..

ورغم هذا كانت تلجمني حينها الحيرة والدهشة، وكأنني لأول مرة أراها، ولأول مرة أسمع صوتها الحنون الرقيق، وأرى وجهها السماوي الهادئ يصافح يُتمي، لم تعد تلك المديرة بقسوة ألفاظها الصعبة توجعني، لقد صار حرفها ترياقا ودواء، ووجدتني أبوح بلا تحكم:

. اقسي عليّ في كل يوم، اقسي في كل لحظة، ولكن خذيني مشوار مثل هذا.
ابتسم ثغرها الجميل وفاح عطر حنانها أخاذا ..فقلت:
-ما زلت أريد أن أعرف لماذا يعق الابناء آباءهم، هل هو ثمن أخطاء اقترفها الآباء.؟
لو يدرون أنني أبحث عن ظل أم حتى..
ضحكتْ كما لم تضحك من قبل، وبدت أسنانها الجميلة،أنصع من كل مرة، بضحكتها التي أحب أن أراها دائما على وجهها الجميل، و التي ظهرت لي كاملة هذا اليوم، كانت تمنحني سعادة ما بعدها سعادة، سعادة كنت أنتظر ظلها دوما.
أهديتها علبتي المفضلة والتي جمعت أجزاءها جمعا، صنعتها لأول سيدة تسمح لي بكلمة ماما.
كنت سأقولها فعلا فسبقتني إليها.
. أنا ماما ماما ماما...فهمت؟
سوف أساعدك كي تصبح متفوقا، نعم لا عليك أنا معك وسأبقى، فكل منا يريد أما بطريقة ما.
-!أما؟
سأبقى حازمة كما كنت.. فعندما تكون المحبة أصل القسوة، سنكون بخير..
مضينا في حديث طويل.. طويل، وطريق أطول وأطول، حيث كان الهاتف يرن بشكل متقطع كنا نفهم جيدا لماذا كان يرن.! ولكن .

2- مقلوب الكيس الأصفر...

منذ زمن غير بعيد ، لم نعد نراه يجمع تلك الأغراض التالفة ، وخاصة في هذا الكيس الأصفر المتهالك التعس...لكأن هناك خطب ما، هو الفضول بعينه الذي جعلنا نسأل عنه ، فمنذ زمن أبعد لم نعد نراه في بذته القذرة المهترئة البشعة، ومنذ مدة غير طويلة أيضا لم يعد كما كان... لقد تغير تماما، تغير جدا.

قيل لنا أن كيسه الأصفر[2] صار يدر عليه ذهبا، بات يحمله في قلبه ..في روحه، فعلا لقد تغير.

وبات سؤالي الملحّ:

-كيف حصل؟، وماذا يعني هذا؟، ومأأصل الحكاية؟.

كان وجهه الأسمر قد ازداد قتامة مع مضي الوقت، وكان لعنة حلت عليه، لا شمس الظهيرة المحرقة، فتغيرت عبارات حديثه حتى، وانعكست على سلوكه، باتت هكذا تماما:

-أمرك يا عمري.. وشكرا يا حياتي...

---

[2] الكيس الأصفر: كيس بلاستيكي متين يحمله الفقراء الذي ينبشون في سلة القمامة ليجدوا فيها ما يحتاجونه من نفايات ،وهي مشهورة في بلاد العالم الثالث.

-هل دهنها عسلا مغشوشا؟، أم أصليا؟.

همست لراشد متمما، وأنا لاأتورع عن الضحك في قرارة نفسي، فراشد هذا يعمل عندي منذ زمن :

-يا رجل حمدي تغير....

قال راشد:
-للأحسن إن شاء الله...

راشد هذا رجل متصالح مع الزمن، زاهد في أفعال البشر، لايشغله سوى لقمته وعمله، ارتاح وأراح.

لكنني شخصيا، كنت أمسك عن مصادقة أي إنسان تراكمت فيه تجارب الحياة المحبطة، حتى لايعديني بجرثومتها، فأحيانا تصلك أخبار شهرة ذاعت صيتها، فيخبرك الواقع الفضّاح بأنها مشوهة وغير ناضجة أبدا، وسلوك غريب عجـيب، يصدر من أفراد أغرب، فلايســعفك هذا بشيء البتة فهي وبال عليك لا ميزة لك ومغنم، لتسقط أخبار الناس، لذا ماكنت لأقترب وذلك خوفا من أن يلبسني ثوبه المرقع يوما ما، فأنا انتقائي بامتياز.

قد تراكمت في ذهني إشارات استفهام استنكارية، فلا أدري هل هو الذي تغير أم فقر الناس المتزايد جعل الحاويات لا تحوي جديدا...

قال لي صاحب الدكان المقابل هامسا:

-لقد تغير كيسه...وبات يحوي كثيرا من النساء جادت بها قمامة الزمن.. ومن ترفعت عليه رماها خارجا فهي تأبى أن تكون حتى في قلبه .

-نساء؟.. اتق الله يا رجل.. ماذا تقول؟، قال نساء قال..

-نعم ،إنها تدر ربحا أكثر بكثيرمن اي عمل آخر، يا رجل أين أنت من الذكاء العصري، يكفي أنها تشبع نهمه العشقي...

-ماذا تقول؟، أنا لا أحب الحديث عن المرأة بهذا الشكل،هي أمنا وأختنا وحبيبتنا وزوجتنا...لاأتخيل..

-أليس زمننا هذا يشبه جدا هذا الكيس الأصفر الذي نحمله في قلوبنا؟، فهو يحوي ما هب ودب بشكل مخيف، إنه بلا انتقاء.
يكفيك أوهام يارجل، القيم التي عششت في رأسنا ولم نفقه منها شيئا ولم نعكسها سلوكا

أبدا، حتى أنها كانت وبالا على حياتنا، فالمشهورون في زمننا هم القدوة العظام فقط . هي نظريات العصر الحديث، من أراد الشهرة ركب رأسا جديدا، ومشى به مختالا ينادي من يشتري؟.

تركته ولم أعبأ بكلامه فقد تذكرت أن بينه وبين حمدي ثأرا ما...

خطر أمامي بسرعة البرق يوما فحدقت في كيسه المتطور الجديد ...وفي عينيه الناظرتين للأرض تصنعا، مثيرا الريبة في الصدور....

لكن مالم أصدقه صياح النساء من الكيس...كذبت سمعي ولم أصدق...وحاولت نكش أذنيّ جيدا فربما أنا من كنت أتخيل...وأعيش كابوسا خياليا كالعادة.

هرع إليّ صاحب الدكان المقابل بتشفٍ:

-ألم أخبرك؟، ألم ألفت نظرك؟.

صمت لساني ولم أعلق!، رغم أن الكلام كان يتراكم في عقلي وصدري نابحا بكل ما يعتلج فيه من استغراب، وإشاراتي الفضولية تدور في رأسي:
-ماذا يعني هذا؟

أجبت نفسي قائلا:
-مصدر ربحيّ جديد...

همس راشد من جديد في أذني مستغربا:

-ألم تر أن كيسه الأصفر مقلوب؟

-ماذا تقصد؟

-مقلوب فعلا..دقق قليلا..

-!!

-انظر ماذا سأفعل:

حينها أخذني من يدي لقارعة الطريق...وقد سرق كيسه المقلوب على حين غفلة منه، حيث ركنه جانب الدكان بقربه، و حيث كان يساوم أحدهم، وسط صياحه وزمجرته وصراخه واجتماع الناس حوله مندهشين.

وأولاد الحي يمسكونه بقوة ساخرين منه:
-أرنا نساءك يا دون جوان الحي.. أرنا نساءك، يا بطل.
-أنا أريد شقراء بمائة ليرة..

-لا أنا أريدها زرقاء العينين سوداء الشعر...

سقط الكيس لدى انتباهته المفاجئة، وتبعثرت النساء هاربات والرجال بدأوا بملاحقتهن. سعداء بتلك الفرصة الذهبية.. وهو يصرخ وينادي وينثر أقذع الألفاظ...

همس لي ضاحكا:

- سوف يكون مشهورا يوما ما، أعدك فخذها مني، واسمع هذه الفكرة:
من البراعة أن تفض بكارة الحياء في النساء ،وترميهنّ لغيرك كقشرة موز يتزحلق بها بعدك آخرون، ولكن من الخزي التاريخي الذي مازلنا نراه متجددا كل يوم، أن تخترع نوعا جديدا من العبودية، تجعلك أنت العبد لها في الحقيقة...
عندها أغلقت كتابي، ونحيته جانبا، حزينا عليه وعليّ، مانفع القراءة وسط كل هذا الخزي نريد مخرجا حقيقيا. 18-7-2014

3- همسة حبيب....

شعرك الأشقر المنساب على الكتفين بفوضى أحببته جدا...يذكرني بنفسي عندما أصحو من النوم ولا أجد مشطي أ مامي..

عيناك العسليتان تشيان بحكايات كثيرة كم أحببت أن أعرفها...عميقتا النظرات.. مخيفتان..

قامتك المستقيمة، تنبئ بأنك لست من هؤلاء الذي يعيشون تحت الخيام هناك في البعيد القاسي..

في تلك البداوة الحالكة السواد ، الغارقة في مادية الأخلاق...البعيدة عن البداوة التي نعرف..

نظراتك كانت تذبحني كلما مددت يدي لأعطيك شيئا ما....

لتقولي بحزم:

-أنا لست متسولة، أنا في المكان الخطأ.. لقد كنت في منزل سعيد.. وسط إخوتي...

كل هؤلاء الذين ترينهم برمجهم الغريب كما يريد.. وتلك السيدة المليئة التي تتسول هناك فقدت عائلتها من قريب...

لقد نحلت وأصبحت أكثر قذارة من السابق.. تكاد تجن فعلا..

وكلما توغلت في مهنة التسول...ازدادت قذارة.

أنا لست متسولة يا خالة...

أنا في الصف الثاني ابتدائي.. لكن خلافا نشب بين والديّ.. جعل والدتي ترسلني لعمو أبو شحادة، ليعلمني مهنة نذهب فيها معا للحج**!!**

-يا الله ماذا تقولين؟

-نعم يا خالة..

مضت ولم تأخذ مني شيئا.. لكنها كانت تتلفت بنظرات مرتجفة...

-مما تخافين يا بنتي

-سأخبرك فيما بعد..

****

كل يوم تمرّين من هنا...ينبض قلبي محبة ..وأسرق من عينيك كلمة...كأنها تهمس في أذني مالم تقوليه أنت أتوقع أتكهن أواسي فشلي في معرفة قصتك...

كل يوم تحدثني نفسي بالخروج باكرا لأرى من أين تأتين وإلى أين تذهبين...

حافلة وفندق.. وينزل منها أولادا كثيرون...بنات وبنين وسيدات..

وكأنه موعد العمل.. في الساعة السابعة ينتشر الوباء...

وصوت القهر يعلو.. ليقول:

-نحن في حرب...وسنحارب الفقر بأجساد أولادنا المقهورة الجائعة...

كلا ليس صحيحا توقعي...

نحن في زمن إبادة العقل والنفس والروح.. في عهد إبادة القلب والأخلاق والمحبة.. لنشعر جميعا برغبة في قتل الآخر... في القضاء على نبع الخير فيه.. لينمو الحقد في أركان وعمق طفولته...

لقتل الخير فيه، لقتل الاستقامة ..لقتل ما تبقى من تفاؤل عشش في ثنايا حداثته...وكأننا ننتحر نكاية بمن نحرونا..

****

كان الصباح مليئا برطوبة مقززة.. بحرٍ ينبئ بالخروج أمامك وكأنه ماردُ من صندوق خفي بشع...

يخطف برودة جسد قتله الحر الفظيع...فجعله منكمشا على ضيقه...نزقا في جملته لتصرخ في كل من يسبقك في عربته بلا داع.. فالتجاوز عن الحق بات شطارة في زمن الحرب..

كل صباح أراك تمدين يدك لتقولي...هكذا علموني ولكن لا تعطني شيئا.. لأنهم يسرقون ما لدي.. يضربونني إن كسبت أو لم أكسب.. إنهم لا يستحقون ما أكسب..

الخبز هناك يابس عفن.. والسكن قذر ضيق...والدخول للحمام بالطابور..

منذ شهر لم أستحم...والماء نتن كريه الرائحة.. في مستنقع حديدي وكأننا البهائم...

فالدجاج يأكل خيرا منا لأنه يبيض...

عندما مددت يدي ببعض النقود ملحة..

قلتِ :

-كفي يدك يا خالة.. لم تعد النقود تستر عورات هذا العالم البشع.. أريد العودة لبيتي لمدرستي...

أنتم يامن تركبون السيارات.. تنعمون بالهواء الرطب، وتنسون أن هواءنا بات خانقا..

-من أين جئت بهذا الكلام الكبير؟..

يا خالة أنا أقرا الصحف الممزقة في الأرض، أكتب في كراسة صغيرة في جيبي كل ما يخطر في بالي...

لكن مؤخرا أخبرني صحفي مثلك تقريبا، عندما أريته ما كتبت فقال :

-لن يعترفوا بك في اتحاد الكتاب غدا إلا لو كنت جميلة أو غنية...أو..

لممتُ كراستي إلى صدري...وهطلت دموعي.. وفكرت أن أتعلم شيئا آخر، أكسب فيه حياتي..

فهلا ساعدتني؟ .

-كلامك أكبر من عمرك يا ابنتي إنني أتعجب فعلا..

- قلتُ لك يا خالة من الصحف التي نلف بها الطعام...التي بحبرها تصبغ لنا الخبز فتجعله سيئ الطعم...

من الحياة التي نعيشها.. الممزوجة بدموع الثكالى المشوهات..

خذي بيدي لدار الأيتام ..لأي مكان لا يبرمجوننا على مهنة السرقة نقضي بها حياتنا عبثا..

خذي بيدي إلى عالم لا حرب فيها.. ولا سلاح ..فقد مات معظم الأهل فيها وهم يسألون:

-ماذا فعلنا؟

همس الصدى قائلا:

-هم المجرمون وأنتم المهملون...

تلفتُّ ورائي فرأيته...

أخذتني الشجاعة فشددتك إلى سيارتي، أغلقت الباب وسرحنا معا...بسرعة فائقة...فقد وجدت حلا مناسبا جدا.

2016-8-24

4-لقمة مسبحة.....

طبق المسبحة طبق شعبي محبوب...قل من يقاوم إغراءه،حمص مسلوق و مهروس وليمون حامض وملح وطحينة زيتية لذيذة، فهو بروتين نباتي خالص، خالٍ بقدر الإمكان من العبث الصحي، هو صديق للمعدة، إلا لو حضر وحش النقرص ، الذي بدأ يتململ في جسده....

لقد عاد مكتئبا، بلا سبب واضح كالعادة، انحساره اجتماعيا يجعلني أحار كيف أساعده، لماذا يقاوم المساعدة؟.

لعبته المفضلة هي الضغط على أزرار الهاتف النقال، وبذلك اكتملت عزلته...

كل يوم يمد هذا الطبق بسعادة وبطريقة فنية فريدة، مزركشا إياه بملعقته الخشبية، يطبق ماتعلمه على موقع اليوتيوب الفيلميّ بعناية فائقة، مقبلا عليه بخبز طازج يحضره خصيصا لنفسه ، ويبدأ بطريقته الخاصة المتوحشة في تناوله.

كنت نصحته مرارا:

-إمضغ اللقمة بروية وهدوء ،لماذا كل هذه السرعة والاندفاع؟؟؟، لن يهرب الطبق ولن يسرقة أحدمنك طعام رخيص مفيد، حتى إذا كانت الكمية غير كافية فإنه يعيد الكرة، فيمد كمية جديدة، يسكبها وهو يتلمظ، بإغراء واضح وشهية رائعة، كانت ترقع غداءه وعشاءه وفطوره ، حين لايعجبه أي صنف آخر غيره...

حين صرخ بألم:

-آخ ..حجرة في نسيج المسبحة الناعم؟ لقد انكسر طرف سني...يا للهول...

نظر للمرآة..حدق بعينيه الصغيرتين..تلفت ونظر لنفسه ، منزعجا جدا..

فعلا لم أر ذلك الكسر بسهولة، فقد كان صغيرا جدا، ومؤلما أكثر، لدرجة أصابه بحزن بغمضة عين، وفي أعلى رباعيته، بحيث لاتراه بالعين المجردة...بل بإحساسك المرهف.

ذهب للطبيب في اليوم التالي...فتبين انكشاف عصبه ومغذيه الوحيد...وضع الطبيب له رقعة بيضاء خزفية عليه..وانتهى الأمر...

لكنني لم أصمت وخرجت غاضبة على ذلك البائع المستهتر..ذلك أنني رأيت بأم عيني بائعين كثيرين ،يدققون في تنقية حبات الحمص الجافة ، فلماذا كان مستهترا ومغضيا الطرف عن أمر هام جدا؟.

فليدقق في حباتها قبل الطبخ والسلق، وليكسب لقمته بشرف.

لكن كالعادة ..صدر منه اعتذار بارد لامعنى له، يظهر عظم اللامبالاة لديه ، وعند مواقف كهذه تحتاج حنكة في تداركها..وكأن لسان حاله يقول:

وماذا أفعل له؟ هذا قدره.

مازلت أتذكر تلك اللحظة ، ومازلت أتذكر إهماله المعتاد في تنظيف أسنانه..وأتذكر تحرجه من تناول أطباقه المفضلة..إنه مازال متألما من تناوله للطعام.

لقد وقع سنه فريسة الإهمال فعلا، والاندفاع المر، كان تلميذا رسب في امتحان الصحة والحرص،وخسر أمرا لن عود كما كان.

عاد الألم يتصاعد..وقد بات نابضا بوضوح..ولأنني قضيت عمري بين فكي القبضة التوربينية التي تفرم الأسنان فرما.لأسنان متهالكة من التسوس، لتراصها، وللإفراط في تناول الحلويات، حتى

بت أعرف تلك الإرهاصات أو البدايات المؤلمة...لقد توفي عصب السن...عظم الله أجركم...

هذا مافهته من الألم النابض، الذي وصفه لي متألما بحرقة:

-هل خسرته فعلا؟.

سبقني للطبيب أعتقد أنه طبيب جيد..، أو من مرتفعي الأسعار، هل ثقتي بهم لاترقى لمهارتهم؟ وهل فعلا يملكون لسانا لايصمت ؟؟،وكأنهم يبحثون عن مستمع لقصصهم الإنشائية وخبرتهم...

لحقت به بلهفة، وكأنني استدرك المشكلة فألغيها ، أو أسري عن نفسي لجريمة بحق قلب قد يتوقف عن الخفقان.

كانت تتقدم تلك العيادة مفتوحة الباب ، والمدخل الصغير ممرضة متزينة بمساحيق رخيصة غير مناسبة، وكعب عالٍ قد يتكسر على وطاة وزنها غير القليل، وهي تحاول تسخين فنجان كباتشينو في معقمة الأدوات الطبية.!

كانت إبرة المخدر التي خرجت من بين يدي الطبيب الكبيرتين، قد دخلت في لثة ناعمة وردية لتخدر الألم وتخدر جبهته وأنفه معا، وكأنها دخلت في قلبي، رفع الرقعة الخزفية، وبات يخرج بقايا العصب..

-إنه متعفن...تفضلي شمي رائحته.

دخلت إبرة تنظيف العصب لأول مرة..وعيناه تتجه لي، تصرخ بلا صوت..تعبر بلا حروف، تتكلم بلا نطق، وكأن قناصا يريد سلبك روحك بلا سبب ولاذنب اقترفته...

أدخله ثانية فتخيلت أكواما من الجثث لاتدري من أصحابها..قتلت بلا ذنب، تشير بسبابتها لقاتلها بحزن...قائلة:

-أنتم من قتلنا..أنتم من تسببتم بكل هذه الآلام...بغبائكم ، بل بتواطئكم..أولنقل أنانيتكم المدمرة.

إلى جنهم وبئس المصير..

أنتم؟؟!!.. من هؤلاء؟؟؟

-هل مازال مصطلح إنسانية عبارة عن غلالة لغوية رقيقة تخفي خلفها وحشا هائلا؟، هل فعلا كنا وحوشا متدثرين بثوب بشر؟.

أدخله للمرة الثالثة، وفضولي يتحرك بعنفوان الأمومة:

-هل هكذا يكون السن قد توفي تماما وبات شكلا بلا معنى؟.

-نعم ، سنضع له رقعة تغلقه، وقد يتغير لونه. ومن المهم تصويره فهو كما ترين يهتز قليلا..وكأن دماغه لاتملك رأيا محددا ، ولاعزما صائبا، وإن ظهر في الصورة الشعاعية أن فيه شرخا ما

فسوف نحفه ، ونجعله صغيرا جدا ، ونلبسه عباءة خزفية تغطي عورته لتغطيها ولاتظهر عريها...

-نتمنى ألا يصبح أزرق اللون فيختلف عن جيرانه ، والأهم من كل هذا وذاك، ألا يأكل عليه لقمة قاسية ، فيقع هذا الجسد المستعار.

هل كان بالإمكان تأخير هذه العملية؟ وهل كان من الضروري تدارك ضعفه الآن وتوقف العصب المسحوب في تزويده بالكلس والغذاء المناسب فيتهاوى من الضعف ويتكسر وحده مع الوقت؟.

إنها عملية غسيل دماغ سني، لقد تغيرت ديمغرافية السن، وبات شيئا مصطنعا..لاترى منه حقيقته الداخلية...نعم هو في الحقيقة خاوٍ من الداخل، لايملك من حقيقته سوى ربعها...

لم يكن يهمني كل هذا فالأمر طبي بحت لامناص منه ولافكاك...

لكن مالفت نظري..أنه لم يكن يستطيع تناول الطعام به،بعد هذا كله، ومازال يتعثر في تناوله للطعام ، حتى بات نحيلا جدا.

لقد صرت أكثر حذرا من كل شيء، كل شيء، حتى خيالي.. و حريصة على صيانة ماحولي بطريقة مبكرة وسريعة.

لكن سؤالا ..لاطائل منه ، بات يرن على دماغي بإلحاح عقيم مزعج:

-هل كان الطبيب هو المستعار؟، أم دماغنا أم السن؟.

2-7-2017

5-وجه بلا ملامح!.

-سوف أتزوج مرة أخرى، إن لم تتخلصي من تلك الشحوم التي تملأ جسدك البض، والتجعدات التي تظلل وجهك ، والذي كان طفوليا يوما ما، ألا ترين كيف تعتني النساء بأنفسهن؟، مازلت فتية.

- سامحك الله إنها من نتائج الإنجاب، هكذا كل أمهاتنا...

قالتها همسا فقد كانت تخشى نزقه المرعب:

-ليتك تخفف من التحديق في نساء التلفاز المصنعات قليلا...وسترتاح من هذا الشعور الطارئ.

عندما كرر وأصر ولمح وقرب وبعد....ولون جمله بمفرقعات كلامية مزعجة، حتى حاصر رضاها بلا رضى..بحيث لم يترك لها ردا ولارفضا ولا صمتا ، كل الاحتمالات

وضعها في جيبه الخرق... ليتركها نهب التفحص عبر المرآة التي لاترى النفوسن بل رؤيتها قاصرة على الشكلانية الكاذبة!.

وقررت أخيرا خوض غمارتلك المغامرات، التي كان بدوره يرفضها رفضا قاطعا، لأنها تفسد الصحة، بالعبث الكيميائي المضر، فقط لترضيه، وعله يرضى هذا كثير التعليق والنقد...

ستبيع ماا صفر من مالها وما احمر، و الذي وهبها أياه يوما ما، لأجل ذلك...فهو لايملك الكثير..

نعم ستبيعهم لترضيه، لأنه لاطاقة له على الإنفاق الآن!، لكنها لم تسأل نفسها يوما:
-كيف يدفعها دون التزام بما طلب؟؟؟، حسنا ستقوم بمفاجأته، هكذا أجمل:

-دكتور ساعدني أرجوك....سأفقد زوجي...والد أولادي..

- حسنا جدا لاعليك الحلول دوما عندي، وشكرا لحضورك إلينا، كان مهذبا جدا، واثقا جدا، أنيقا ونظيفا جدا حتى في عيادته:

-لدي برنامج ناجح جدا:

1-سوف نشل العصب الجبهي حتى لا تظهر تجاعيد الجبهة....

2-وسوف نقص شيئا من الجفن الأسفل لأنه منتفخ قليلا...

3-سوف نشد جلد الفك لأن التقليعة الحالية، إنها تميل للفك العظمي الواضح المعالم، والخالي من الدهن الواضح.

4-وسوف نرفع النهد ونحشوه بقليل من السيليكون ، ليظهر أكثر شبابا.

وإن أحببت يمكننا حقن الخدود بالباتوكسس، بحيث تظهر أكثر امتلاء ، جميع النساء باتت تلجأ له كحل أمثل، هي سترفع بدورها جلد الوجه وتمنع من هبوطه.

سوف نخفف التهيج الجلدي بعد ذلك، بإبر جلدية مهدئة، ،

****

كان هذا منذ فترة قريبة ، لكنها هرعت الآن تصرخ بألم:

-دكتور الحواجب تهدلت...هل هناك خطأ تجميلي ما؟، فالأنف صار كبيرا مقارنة بشكل الوجه..

حتى أن شحم البطن معيب جدا..ياالله..

-لاعليك الحلول كلها عندي، اطمئني .

لدي برنامج ناجح جدا:
1-سوف نرفع الحواجب بعملية جراحية بسيطة.

2- وسوف نسحب شحم البطن بإبرة بسيطة في رأسها كاميرا، وسوف نذيب الشحم ونسحبه...بالحرارة.

ورغم أن الشحم الحميد أصلا يرفع نسبة تواجد الشعيرات الدموية للتغذية، حيث تختفي هي تلقائيا بعد النحول الطبيعي ، لكننا سنختصر عليك الطريق ونزيحها مع الدهون...

3- ومن الأفضل عمل طي للمعدة، أو هناك بدائل تقرريها بنفسك فلدي خيارات كثيرة، سوف أطلعك عليها عندما تقررين...

****

مازالت تغص كلما تذكرت ماحدث...وتنظر للمرآة بإعجاب:

-ماأجملني الآن...
ومن جديد، ماهذا الألم دكتور؟...
-تفضلي إلينا حالا، أظنني نسيت.. برنامج بسيط يحل المشكلة..

لا عليك

عملية أخرى بسيطة لاتضر...

وهنا أيضا تحتاجين لعملية أخرى لاتضر...

وهناك عملية أخرى لاتضر....

ولاتنسي عملية أخرى هنا لاتضر....

خرجت صارخة من الألم...

لم تعرف نفسها أبدا...لقد تبدلت ملامحها تماما، وأنكرها أولادها وحملقوا في وجهها مندهشين ومنادين...

-نريد أمَّنا الحقيقية...لانريد دمية من السيليكون...لا لست أمنا، بل امنا الغولة..

وضحكوا وانصرفوا إلى غرفهم ، بين أسف وضحك متلفتين، لتلك الدمية الساحرة الملونة بألوان قوس قزح..

كان جالسا في زاوية الغرفة يقرأ جريدته كالعادة ببرود شديد، عندما نظر إليها من وراء النظارات شزرا.. فلم يعجبه هذا المظهر الجديد...كانت قد تأخرت كثيرا حتى وجدت الرد المناسب:

-كن شجاعا أولا في الإقدام مثلي، فصلعتك لم تصلحها بعد، وكرشك العظيم غطى على طول بدنك، و...

هل وجدت حلا لكل هذا؟.
-تذكري أنني متصالح مع ذاتي دوما ...راض عن حالي تماما، لذا لالزوم لعمل شيء البتة!.

نظرت حولها ، فلم تجد أولادها....ولازوجها..

قالت الجارات همسا من الشباك:

-مسكينة لقد كان قد قرر زوجها الزواج من قبل أن تفعلها، وحتى قبل أن تقوم بكل هذه التغييرات.

تذكرت نصيحة أمها أخيرا..

-لماذا تبحثين عن الحل الصعب؟، الحل الأسهل موجود لماذا لم تراه عيناكِ؟.

-كوني أنت فقط..كوني نظيفة مرتبة، صحيحة الجسم، صحيحة العقل، يكفي تماما..

بكت حيث لم تعد تنفع الدموع بعد الآن...لقد ماتت...

2018-1-30

6-وحدنا معا....

لم أدر كيف دلف فصار داخل الغرفة...ولا كيف صار أمامي بشحمه ولحمه....ولا كيف تجسد فصار طولا وعرضا وأبعادا ثلاثة...

كحلم لذيذ أخاله..... لأتجرع عبره كؤوس اللذة والمحبة بلا طلب مني..

ربما بخطأ حدثي لا يد لي فيه.... حصل هذا!

أطبّق مثلا قديما جميلا :
-مكره أخاك لا بطل....

أي مكره وأي بطل؟ وأي حلم يبقى حبيس ذاكرة...

أحسبها لحظات من السعادة تسربلت بذاتي... تنفر من الحقيقة لتحقق الأماني...هل كان ملاكا من الجنة تجسد بشرا؟

أم حلما لذيذا صاحبته اليقظة؟

أم حب قديم فاته الوقت فتدلى مشرعا فاه شماتة بأفوله؟

تناول كأسي وشرب منها الماء..تناول طعامي بابتسامة ماكرة..

-لذيذ جدا...

-كنت نفثت فيه ثلاثا من آيات الذكر الحكيم....

لم أخف منه أبدا.. سرني عبثه بأغراضي..

يتجول في غرفتي واثقا من أنني لن أمسه بسوء...ولن يمسني كذلك...

-لم تسأليني من أنا...

-مسرورة أنك معي الآن.. وأخالني أعرفك..

كان أطول مما عرفته، وأكثر ترتيبا وأناقة...وشعره عاد كما كان غزيرا جدا...وشديد السواد...

فتح خزانة ملابسي...أخرج منه فستانا كنت ارتديته يوم اللقاء الأول...

لا أدري لم أحتفظ به حتى الآن...!! حين اختلفنا..

فتجرعنا كؤوس البعد والشقاق طويلا...
لقد ازداد وزني الآن ، وأحكمت علي حبال الهموم.. ولم يعد لدي وقت للحب..

- لقد ازداد وزنك حقا...

-!

-هذه كلها كتبك ؟، و التي كتبتها طوال هذه الفترة...

جلست مرتمية على كرسي وثير ،بدمعتين سخيتين ساخنتين...لامعنى لها

-نعم كتبتها ..عندما أدركت أنني كنت اسماً في قائمتك...بندا في قانون استمالة القلوب...

-أنت كنت تبحثين عن الحب...
-كنت أبحثه في عيون كل الناس ، في الضمائر...في صدق القلوب...في كل ناحية وحين..
-كنت تخونينني في ضميرك...

-كل الناس تخون بعضها حتى في نظراتها..

مزق لي كتابي الأول.. فما تحركت...!!!كمن يتحدى صموده..
-لم يعد لي رغبة في المزيد بعد الآن ..لقد استنفذ الحرف غايته ...افعل ماتشاء..

-عنيدة أنت ...قلت لك اتركي الدنيا كلها وتعالي..

- أي دنيا كنت تتحدث عنها؟، دنيا الضياع وبيع الماضي للحاضر...والوقوع في أحضان العبث بلا هدف..

-كنت ستكسبين حبي..
-وأخسر العالم...والحاضر والماضي...لن أفعل...

مزق كتابي الثاني...

فما تحركت..
-لقد استنفذت غاية كتابك الثاني.. صح؟

وأتى على جميعها واحدا واحدا...فهطلت مني دمعة واحدة.. هربت مني رغما..

-عنيدة...أنت

لقد وهبتُ نفسي للحب.. ووهبتِ نفسك للحرف.. يوما ما لم تكونين معي أبدا...

نعم لقد سخرت مني ولعبت فوق حروفي فسرقتِها... وسرقتني..

عبثت بمشاعري لكي تكتبي..

-تعلمت منك فنونا كنتُ بحاجة لها...هكذا كنت أن، فأنت مدرستي...

-كنت أمهر مني في الاستلهام .

-والآن...

-أنا راحل إلى غير عودة...

-ومن قال أنني كنت انتظركَ..؟

صرخ بصوت عالٍ...ألهب الجدران...

-مجنون من يهب نفسه للأدب...

لا شيء اسمه أدب.. الدنيا ربح وخسارة صفقة بيع وشراء.. لنشتر أنفسنا ومتعها.. هذا هو كل شيء..

عبث بخزانة كتبي من جديد.. رمى بقيتها...

-افعل ما تشاء...فأنا راضية عن نفسي.. وسأبقى

- أكتب لأرضي ضميري وطموحي وفكري..

حتى لو لم أجد قارئا واحدا... لماذا عدت...؟؟؟

-لآخذك معي...

لم أتكلم كلمة واحدة، بل ظللت أحدق إليه طويلا...

فجأة.. أرعبني صوته المدوي..

لقد انشطر نصفين ...نصف تبخر ونصف توحد بروحي ، واختفى....

2016-1-11

7-كوسا مَحشيّ

لملمت حقائبي وجمعت أغراضي فيها ، وما زلت متعجبا من كثرة تلك الحاجيات، التي تبين لي أن نصفها لا يلزمني.

كنت أيقنت أنني لم أعد أجد سبيلا لأي هروب من الواقع، الذي زين حياتي بالحيرة والسؤال...واقع التفاوت المنطقي الحضاري..

لماذا في هذا البلد العربي البعيد ، والذي كان ذو جذور ضاربة في البداوة، يعيش نهضة عمرانية وحضارية غاية في الانتظام بينما نحن هنا، نتقدم خطوة ونتأخر خطوات...إنه سؤال جدير بالبحث.

كنا وكنا آخ من هذه الكلمة المحدودة السقف...الشائكة المسلك، الحارقة الحرارة.

نعم...كنا أصحاب حضارة قديمة ناجحة، باتت تغرق الآن في مذابح   التخريب .

تأخرت طائرة بلادي كثيرا جدا.. وما زلت أحدث نفسي.. ونفسي تحدثني..

مازالت هذه الحاجّة الطاعنة في السن ، والتي تجلس قربي الآن، تذكرني بأمي التي ماتت من حزنها على إخوتي...

تثير شفقتي.. كيف تسافر وحدها عائدة للوطن؟.. أين أبناءها وأقرباءها؟.

حملتُ لها أغراضها وحاولت الاعتناء بها قدر الإمكان، وهي تقرأ عيونَ الناس، .وأنا أقول لنفسي بنفسي :

أنا عاجز مثلك لا أستطيع رأب الصدع في روحي وعقلي، فكيف أجمعه في بلادي؟

لذا ماكنت أريد العودة.. للوطن أبدا .

قلت لها بحزم وقوة : لا أريد العودة

قهقهت بقوة قائلة:

-أتمزح؟...انظر لحالي، مثلي لا يعود.. فلم يعد لي أبناء في الوطن...لكنني عدت لأموتَ فيه...هذا كل شيء، هذا أقل الواجب.. يا بني

-العمر الطويل يا حاجّة.. وأنا مثلُك وحيد فيه.. كرامتي كانت هناك في الخارج.. أحسست فيها غامرة مدللة.. فقدتها في وطن لا يشعر بي ... ولا يعترف بي.. ويعترف بمن غشه وسرقه..
-لا تترك مكانك لغيرك.. المكان الخالي يغري ويغرّ

-أنا محتاج لعمل يحتضن طموحي، ويملأ حاجتي للقمة العيش.. بذات الوقت.

...المصالح متبادلة دوما يا حاجة هي الحكم....أنا فقير في بلادي.. والفقر غربة جديدة.. وولائي رغما عني للقمة العيش.. لماذا نكذب على أنفسنا؟،هل أموت جوعا في بلاي لأنني أحبها؟..
قالت متنهدة:

- إيه يا بني...أجمل شعور في الكون ، لحظة النهوض و الصعود...وأنا أحبها ولو على طائرة...

-وأنا يا حاجة لا أريد العودة إلى بلادي...لا.. أريد

- لا تريد وتعود.. هه، ذكرتني بمحفار الكوسا .. عندما نخرج ما فيها ونضع فيها موادا أخرى.. قد تعجبنا بداية. .لكنها بالنهاية ليست من أصل الكوسا...

-لم أفهم يا حاجّة...

أكبر جريمة تاريخية في العالم ، هي حفر الكوسا يا بني، فالكوسا قاومت، لكن ورق العنب فتح كفيه ، فحشوه أشكالا وألوانا ..

-والله يا حاجّة أنت ظريفة.

-هذا هو الواقع يا بني...

-طيب ، ماذا نفعل حتى لا نحشى مثل الكوسا محشي...

-ههه اطبخ عكوب الجيل مع اللحم، ولكن لا تأكله بشوكه...

-يعني سأطبخ على آخر الزمن....يا حاجة ؟شيء حلو
-يا بني، هناك فرق بين أن تطبخ.. وأن تُطبخ.. ولكن ادرس عملك بأمان.. فكل زلل من الخطوة الاولى...ستدفع ثمنه لاحقا.

-حاضر يا حاجّة ، سأفترض أنني فهمتك....

حدجتني بنظرة وازورار...قسمتني أربع أقسام... بات كل قسم في جهة.. ولم ترد علي بعدها...

-يبدو يا حاجة أن طبخك طيب..

-سأعزمك على طبخي إن أحيانا الله..

كانت لحظة صعود الطائرة مفرحا لي جدا فعلا .. كما قالت لي الحاجة...تماما.. صمتت...تأملت...

تذكرت ماكنت عليه بين اهلي وإخواني.. عندما كانت يجمعنا الليل على مشهد واحد هو العشاء الدافئ.. من يد أم حنونة.. أين رحلتِ وتركتني...

عندما جلبت هدايا لعائلتي عند اول راتب تقاضيته...كان الفرح عندها في عائلتي عظيما جدا...

عندما كان والدي يقول لي راتبك لن يكفي.. هل تحتاج لشيء ما؟...

كنت أقول له قد حصلنا على زيادة. .كان يبتسم بصمت ويمضي للقراءة...

نعم.. وجدتها في الطائرة بلمح البصر، سبقتني إليها لا أدري كيف..

وأنا أودع الأنوار اللامعة من بلاد ناهضة غنية، لأستقبل خفوت الأنوار في بلدي الجريح...واختفاء كثير منها.

وددت لو خطفت نورا واحدا على الأقل منها ، لأزين زوايا مظلمة في بلادي.. قالت:

- أنا لا أحب لحظة الهبوط.. فقد لا تفتح الطائرة عجلاتها.. ، قد لا تتحرك الاجنحة جيدا...وقد وقد.....

-حتى الصعود يا حجة. .قد يتعذر فنسقط في الأسوأ..

- الصعود دوما أصعب من الهبوط...و إن حملنا مظلتنا معنا.. قد يصلح الأمر.. لكن لحظة الهبوط لحظة غاشّة. .توهمنا بالوصول.. وهو هبوط قسري لعين...

- لا أريد العودة لبلادي...لا أريد...

-لماذا تعود الآن؟.

- ظروف يا حاجّة ظروف..

لقد ظلمَني... كل الناس يظلمونني سأموت فيها إن عدت... لكنك ستموتين برحمة ...أنا لا أعرف عن أقربائي شيئا.. ضاعوا كما ضاعت هذه البلاد...وعندما حاولت البحث عن نفسي خارجها.. تعثرت كثيرا، آه كم ضاع ناس وناس... لكن ودت مالم أجده في بلادي.. لنكن صادقين.. ونقول كلمة صدق ولو على أنفسنا.

نظرت لي شزرا من جديد...نظرة التي لا تريد أن تفهم...

وقالت :
-أنت كمن هشم أخوه له جمجمته.. فسامحه...ولكن لم هشمها.. هذا هو السؤال...

أو لنقل...كمالك بيت أجّره لغيره مجانا فنكل واستغل وانتهز . فرصة العوز والشقاء، .وفقأ بكارة بناته خلسة، لأنه وافق على مجانية الاستئجار...فأنت المستأجر..

- كأنني لم أفهم...

قطع سلسلة الحوار صوت امرأة تنهدت بصوت خافت ..فركضت المضيفة إليها، وسألت عن طبيب في الطائرة حتى انبرى أحدهم لنجدتها:
-يبدو سيدتي أنك نسيت دواء الضغط، وإلا لما حدث لك كل هذا ، كان عليك أن تتناولينه قبل دخولك للطائرة.

لابأس هذا دواء جيد ، عافاك الله.

كان طبيبا خبيرا على ما يبدو...واثقا من سلوكه الطبي....كثرت الأسئلة الصحية كما تعودنا حتى أجاب بسرعة وعاد لمقعده ولحقته العيون...

عاد كل لمقعده بعد أن اجتمع بعضهم عند الامرأة، لمتابعة الموضوع بفضول، ورسم جمل العناية والدعاء على الموقف كله .

همست لها بإصرار:

-لم أكن أريد العودة للوطن...الوطن الحقيقي.. الذي أشعر فيه بكرامتي...لكنني الآن أريد أن أتناول من طبخ يديك...

لماذا تكرر ما قلته سابقا، ابحث عن حل لمشكلتك، ولا تشكو قضيت غربتي أغزل الصوف.. أسبح في كل غرزة، وأدعو الله أن يحمي يتامى بلادي من البرد في بلادي وها أنا أعود إلى تلك الجمعية الخيرية الغراء. بحمل موفق ، يحمل آخرتي بإذن الله ويتحملها..

لو عرف أحدنا ربه جيدا.. ما وصل لطريق مسدود..

نظرت إلي بابتسام..... أعطتني رقم قبرها.. ولم تكن مضطرة لذلك أصلا، ولم تتركني أرد وأدع لها بطول العمر...أخرجت من محفظة كبيرة نوعا ما، قطعة حديدية، فتحتها فحاولت مساعدتها، فأبعدتني برفق...

ليظهر لي كرسي متحرك......

نظرت في الفضاء.. صمتّ كثيرا جدا...

حملت لها حقائبها... حين ظهرت من وراء حجب مطاطية...دوارة...بعد وقت ليس بقليل.

عندما لم أجد أحدا بانتظاري ، قلت لها مازحا بعفوية وكأنني لم أر عجزها رفقا:

-هل ما زلت ترغبين بدعوتي على الكوسا المحشي؟

-لا سوف أدعوك لطبق الشاكرية فهل تقبل؟.

ناداها أحدهم من بعيد:

-يا حاجّة نظمية.... يا حاجّة نظمية جئت لأستلم منك المحفظة...

نادى كثيرا.. لكنها لم ترد بعدها....

سقطت على الأرض وقبلت التراب...

لكن صوتا بعيدا ناداني بعد وقت قائلا:

تعال بسرعة الحاجة تريدك بأمر...

8- النمل الأحمر...

نعم هناك رأيته...في مقبرة الدحداح في مدينتي " دمشق" التي يحتضنها شارع عريض طويل اسمه شارع بغداد، ولا أدري لماذا سمي بذلك، ففكرت سؤال العم " غوغل" عن ذلك، فما أتاني بجواب صريح ،ولا رد علي برد صحيح، ففهمته بطريقتي على أنه كان محببا من أهلنا في العراق وعمره سبعون عاما.[3]

---

[3] شارع بغداد.. معلم عمراني دمشقي عمره 70 سنة
http://archive.aawsat.com/details.asp?section=67&article=524898&issueno=11168#.VbMQDqQVjcs

لكن تبين لي لاحقا ومن خلال حوارات جانبية في الجمعات العائلية، أن فرنسا شقته لتأتي بعتادها إلينا فمحت على الخارطة مساجد كثيرة...

هكذا نحن.. لنقدم المفيد، نمحو الأكثر فائدة..

-..نعم مازال لغزاً هذا النمل الذي يغزو مخيلتي بقوة، كلما تذكرت ذلك المشهد الرهيب.. كل الحشرات ذات اللون الأحمر اجتمعت هنا!!!

كان مشهدا مغريا وقبيحا بذات الوقت... ومقززا.. لماذا قبره بالذات؟..

حفظت الاسم وبدأت مشوار السؤال بتؤدة..

كنت دوما أتسول الأفكار على أرض الواقع، أبحث عن نفسي فيها، أجمعها لأرد على كثيرها المتكاثر!

أجد رغبة جامحة في فك طلاسمها العصية...والتي تزداد كل يوم بازدياد تعقيد الحياة والنفوس معا...

نعم نمل أحمر ينهش نفوسنا، فماذا لو كان على قبر!!!

كان يزحف على صدري.. يدور في خلدي.. يدخل ذاكرتي.. يفتتها ويقرضها كفئران الليل...

يلوح بعصاه ..

يذكرني بآلتي الطابعة التي اختفت فجأة بلا سابق إنذار..

حتى أنها عطلت ملكتي الكتابية...فعدت لأكتب على الورق.. ذلك المسكين الذي يحمل في ذكرته، ترهات البشر، ينشر منه السيء ويغيب الجميل بين غيوم الغش والمحسوبية...

كاتب خائب فاشل.. مازال يكتب...لمن ولماذا لا أدري..

ماكنت لأتعود الكتابة على الحاسب تلك القطعة الحديدية الخالية من المشاعر الواقعية........

كانت أشرطة تلك الآلة القديمة، و التي عمرها 20 سنة مخبأة في خزانتي يتيمة حزينة...مازالت تنادي على أمها لتعود..

غريب هذا الربط العشوائي الذي أفعل...ما دخل آلتي بالنمل الأحمر؟؟؟!.

كانت خالتي تقول لي:

-إن النمل والحشرات الحمراء.. تتغلغل في الأماكن الشيطانية والعاصية...و ما عهدته إلا ملاكا!!

إذن هو ليس بملاك...هو شيطان يتدثر بملاءة بشر أجادت فن التخفي المرّ...

قلت لها:

-إن هذا الأمر يشبه إلى حد ما ، ما حصل معي عندما تذمرت من عمي ذو السمع الثقيل ، و من كثرة ما كان يترك التلفاز على صوت تلاوة القرآن بصوت عالٍ جدا جدا... ذاك المحبوب الذي ما عاد محبوبا الآن !.

ورغم أن حضوره بيننا كان يسعدنا في البداية...لكننا رويدا رويدا، صرنا نشعر بالعجز مثله خاصة عندما يتنحنح بثقل على الكرسي وهو يجلس بكامل ثقله، فيصدر صوتا كالموت!.

الغريب في الأمر أنه رغم سمعه الثقيل ، إلا أن هناك ما لفت نظري في هذا الأمر...

كنت حينها أحاور أخي الصغير من غرفة أخرى، عن حل لهذا الأمر الطارئ والمزعج كنت أجده يرد على سؤالي لأخي من بعيد!!..عجبا..
حيث تكرر الأمر مرات عدة...

وكلما ذكرت ذلك لخالتي.. قالت هي عينه الثالثة، أو لنقل هي البصيرة، هي شفافية التقوى ماكنت لأفهم كثيرا على تلك اللغة التي تدعى صوفية.. لكنني كنت أخزنها في ذاكرتي، لأبحث عنها يوما ما من جديد وبعد سفر أولاده للخارج ، لم يعد له أحد يلجأ إليه، سوانا وعندما رحل آخر أولاده من الأردن لأمريكا.. عاد بخفي حنين كاسف البال.. فهو لن يستطيع سباق الزمن والسفر معهم هناك..

فطاقته باتت محدودة جدا ، وهو يدخل عامه المائة!، ومازال يتأمل أن يفعل الكثير، فماذا فعل قبل هذا سوى تربية الأولاد وبعض القراءة؟!.

منزله الذي يحتاج صيانة جذرية..، يحتاج لعمل كثير يضيق الأمر عنه الآن...خاصة أن مكوثه فيه يحتاج رعاية من أحدهم يقيم عنده ولا يفارقه...لذا صرف ولده الباقي هنا، النظر عن هذا الأمر لقلة المخلصين الصادقين في مهمة صعبة كهذه.

لكن كيف سمع؟؟؟؟وأمرنا بإغلاق التلفاز حينها وفورا؟؟؟؟

سؤال يقلق ذاكرتي فعلا...

هل هو من العارفين بالله كما كانت تقول لي أمي قديما؟، يشعر عن بعد بمجَساته الورعية؟

أو ربما كان كقطة جارنا، ذات النظرات الفولاذية الثاقبة، والتي كانت تحكي في داخلها أكثر من البشر.. أشعر بكملتها تخرج من عينيها وهي تحملق بي...

تلك التي ولدت ولادة جراحية ، نسميها زهراوية ، لأن أول من ابتكرها الزهراوي.

حيث كانت من الفصيلة الشيرازية، وزوج تلك القطة الجديدة حينها كان من ذات السلالة.

الذي عاش في ديارهم مذ كان عمره خمسين يوما، حتى بلغ السنتين ولم يجدوا له زوجة بعد فكانت تلك ، فأتت بها ابنتهم ضائعة من الشارع حاملا ، لتضع مواليدها الأربعة ، و يحيطهم زوج الأم المحلي السلالة، الفرنسي الأصل، بحنان فنبيعهم**!**

ونستقبل مواليده التاليين المشوهين بعد تلك العملية الصعبة، ليبق واحدا سليما حينها..
كانت دموعها تتساقط بشكل واضح، شاهدتها بأم عيني فقال أحد أصدقائي:
-حتى القطة تبكي أولادها الموتى، فكيف بقتلى لا أحد يبكيهم؟؟؟

-من؟

-أبناء الوطن والفتنة اليقظة...

-بات كل شيء يحتاج تفسيرا حقيقيا الآن، فالسطحية في معالجة الأمور مضرة ، يترتب عليها نتائج كثيرة ندفع ثمنها لاحقا.

سألت جدتي التي لم أرها إلا في الصورة:

لماذا يحصل كل هذا؟

فقالت لي وشبحها يسبح في أحلامي الهشة:

- واقعكم كأبيكم، كان يهدي نصه لأعمى، وذاك يعطيه لأعرج حتى يصل للمكان المفترض...

وهكذا ما تبحثين عنه..

-لم أفهم...

فهل كنت أحدث نفسي؟، هل سرت العدوى من عمي إلي؟!! يا إلهي...

كانت روحها الهائمة في فضاءات حياتي.. تدور حول كل حدث مهم ..تتجاوب بقوة وتهدد أحلام يقظتي ووحدتي النفسية...

أشارت لي على مخلوق بانت قسماته شبه غائمة، لكنني عرفت حجمة وعينَيه الصغيرتين الثاقبتي النظر...

كأنه جارنا الذي قيل عن والده أنه كان يسلم الثوار للفرنسيين.. لا يصلي بل يتظاهر...لا يتصدق بل يسرق ويزكي عن سرقته...لا يتوضأ لكنه يبلل أعضاءه...

عاد السؤال يزاوج حالتي الحياتية التي راوحت في المكان:
-مازلنا كما كنا.. بيت هادئ الأركان حتى الموت.. وأطفال كبروا وعملوا ومازال عددنا كما هو...وزادت الروح العجز والضيعة العمرية، بحضور والد الزوج المثقف، ورغم أناقته الحضورية.. إلا أن روح المنزل ازدادت توغلا في عالم الشيخوخة...

وعندما ساءت أمزجتنا يوما قالت لي صديقتي الورعة:
-لو رحل يوما ما ستتذكرين أن كل حرف من القرآن يقرأه لك فيه نصيب..
ماذا تعنين؟

-إنها الحماية والعناية..

ذكرت يوما ما لعمي هذا ووالد زوجي.. ذاك القبر.. حيث رأيته وحدي وانا أستطلع حال الموتى.. وبقية عائلتي مازالت واقفة أمام قبر الجدة والدة الزوج.. وما أثار العجب أننا أضعناه بعدها ونحن نبحث عنه من جديد لنطالع تلك العجيبة!.

عندما قلت له ما رأيت... بعد أن قلبت دفاتر ذاكرتي...

صمت قليلا نظر في الفضاء...دمعت عيناه....

نظر إلي وقال:
- كان يسلم الثوار للفرنسيين.. لا يصلي بل يتظاهر...لا يتصدق بل يسرق ويزكي عن سرقته...لا يتوضأ لكنه يبلل أعضاءه... كان الكذبة الكبرى في زمانه...

إنهم أبالسة دنيويين ينذرونه بعذاب قريب...

2016-5-30

9-حاولت أن أنحرف...

جئتني باكية.. متألمة.. وفوجئت بأنك قريبتي البعيدة .كيف أهملنا القريب وقربنا البعيد...

نعم أنا أعمل الآن لحساب جمعية خيرية، لكن أبدا لم أتوقع أن تكوني أنت من أعمل لأجلها، أو أن أراك بهذا العوز....

ماهي الجريمة التي فعلناها لنر هذا الوجع؟، قالت لي وغصة تأكل حلقها وصوتها:

-سافر وترك لي كوم لحم.. ترك المسؤولية وتنصل منها واختفى تلاشى.. تبخر... وفي

خضم أزمة تعصف في البلاد والعباد...لم أتوقف ولم أسكن.. خبطت يمنة ويسرة فتذكرت أهلي وزواج وأنا صغيرة.. أنا لا أتقن أي مهنة...

حاولت أن أصبح تاجرة ملابس أدق أبواب المنازل.. لكن المعامل قلت والناس حذرين.. والربح يتضاءل...

-سوف أجد لك عملا في هذه الجمعية وراتبا شهريا ونفقة تلتزمها بناء على وضعك هذا..
-نعم ولكنني أريد زوجا...قبل النقود...

فأنا أمضي في الطريق ونظري يخونني دوما......

حاولت أن أنحرف فلم أستطع...والحمد لله...

فهل تستطيع جمعيتك أن تؤمن لي زوجا أيضا؟

-!!!!

10-أنا وبيل غيتس...

قالوا عني أنني متسرعة...نعم هذا ما حصل...

حتى رغم أنني مهندسة وناجحة مجتمعيا وعمليا كما يقال أيضا...

لكنني قلتها لهم بلا حياء:

-أريد أن أصطاد الأمور طازجة دوما
فعلا هذا ما حصل..

إلى هناك وصلت بعد عراك مع الزوج...مرير جعله عنادي يستسلم لمرادي..

هناك في هولندا تعلمت الهولندية، و عملت في مدرسة من بلادنا وابتلعت تأخر الراتب ثلاثة شهور، ونلته بعد طول الرجاء..

خرجت من السكن العام حينئذ، غير آسفة على العمل.. حيث أن المؤسسة كانت من إنشاء بني جلدتي...

لقد تقاطع الحلم بالحلم حتى صرت أرى الكوابيس...تعاكسني وتقطع علي تفكيري..

امتزجت بشكوى مسلمين هناك الذين التقيت ، تمازجت أعراقهم وجذورهم، حتى غدا ديننا انكليزيا تماما، لتعثرهم بالعربية..

كانت أوقاتا رائعة قضيناها معا...

سمعنا فيها ومعا تسبيح الزهور والشجر.. كيف يتلهفون لسماع حديث رسول الله ولا يعرفونه جيدا، ولا يفهمون حتى نصف ما يجب أن يعرفوا ..لتباعد المسافات واختلاف الظروف والتقائهم ، بصعوبة...ونحن نؤجل ذكرا يروح على القلوب ويسري النفس القلقة...

هذا ما كان يمنحني الصبر على المشقة...باب العطاء الجميل ..الذي جعلني انبش في عمق الذاكرة ..لأقدم ما لدي ، عند لقاءات المساجد..

وصرت أسأل نفسي :

-كيف فرطت بعمل في وطني كان يسد رمقنا في البلاد؟.

هل أعجبك حديث الجيران من حولي هناك، ومغامراتهم الخائبة في الغربة؟، هل أنت الأفضل؟. والأكثر ذكاء؟

قالها بيل غيتس قديما:

-أحب الأغبياء، لأنهم كسالى.. يبحثون عن أقصر الحلول.. بينما الأذكياء.. دائما حلولهم التقنية معقدة لا تسعفنا.. ولا توصلنا لبغيتنا بسرعة..

فأين أنا الآن؟؟

-بيل غيتس أجبني...أين أنا الآن في قائمة حساباتك؟..

هل ما أفعله هو الصواب؟

يا للخيبة...

طلبتْ مني المترجمة حينها، و التي نمتُ في دارها مؤقتا.. استدانة مبلغ ما. فقدمت لها ما تبقى لقضاء حاجتها..

سافرت وسافرت معها قطعي الذهبية التي اكتشفت أخيرا أنها اختفت....

عدت مسرعة لوعكة خبيثة ألمت بزوجي....حين واجهني بابتسامة عريضة أدت لحمل جديد بعد أربعة أولاد يافعين...

-نعم نريدك أن تعودي ولن نأت إليك...

****

أذهب الآن إلى الجمعية الخيرية...أطلب المساعدة.. فزوجي بلا عمل منذ زمن...

تجلس قبالتي قبل أن يأت دوري امرأة منحنية الظهر، مبتسمة المحيا، تقول للمشرفة بسعادة:

-ابني حصل البارحة على مرحبا..
-عفوا؟

-هذه الورقة انظري..

-إنها مرحى، يعني ثناء كتابي حصيلة نتائجه الموفقة في المدرسة..

-أي والله...أعجز عن الشكر لأنكم ساعدتموني في شراء خزان للماء، مستعمل وقديم، المهم انني لم أعد أملأ الجرادل بالماء من عند جارتي.. فقد ولد هذا ألما في كتفي مبرحا...

أنا سعيدة الآن...سعيدة جدا.

نعم .فولدي سافر للخارج ..وبات يأكل جيدا.. لقد سلق البطاطا مؤخرا.. ومازال يشتهي الباذنجان المقلي من يدي هاتين، مع الفتوش..

أنا سعيدة جدا.. فقد بت أغلق عليَّ داري وأنا لست بحاجة لأحد الآن أبدا...

صحيح إنني أعمل أربع وعشرون ساعة في الخياطة وتركيب الأزرار وغيرها من الأعمال للمحال التجارية ولا أنام إلا قليلا...

لكنني سعيدة جدا.. فأنا لست بحاجة لأحد...

نعم لم أعد بحاجة لأحد...

نظرت في نفسي.. نظرت في ملابسي...وقلت في نفسي:

-كان بإمكاني العمل في بلادي ولو بما يسد الرمق...
ولكن.. هل وصل بي الأمر أن أبحث عن مساعدة ؟..هل من المعقول ألا أجد عملا ما؟؟؟

للحياة عدة وجوه.. فمن أيها ننظر نظرت لنا...كلٌ لديه نقص ما في حياته.. وكل يستطيع العطاء...

فقد عرفت من جارتي، أن تلك المشرفة في تلك الجمعية ، مطلقة بعد شهر من الزواج...وقد تقدم عمرها الآن...هي مازالت جميلة...امتهنت العطاء.. لأنه أقصر السبل للسعادة...

الحل البديل ، دوما يمكث قريبا منا...

فلماذا ندق الأبواب ولا ننظر داخل أدراجنا ؟.

إن كلمة :

-مللت..

أقبح كلمات العربية قاطبة ...إنها جملة الفارغين اليائسين عجوزي التفكير...

مؤكد نحن نملك موهبة ومعرفة ما ..تخولنا لعمل شيء.. حتى تنظيف الجدران.. هو عمل أيضا...

نهضتُ من جلستي هذه...وأنا ما زلت أهمس لنفسي بنفسي...أنظر لمن هم حولي والدموع تكاد تتساقط من عيونهنّ...

نادتني المشرفة...وقد لفت نظرها همسي المتواصل ..وتمتمتي وكأنني أكلم أحدا ...

حتى نظراتي الفاحصة فضحتني.....

سألتني... عن أوراقٍ ثبوتية للتسجيل على قائمة الدعم الغذائي والدوائي.....

فقلت لها:
-نعم أستطيع القيام بأي عمل...لا أريد مساعدات..

كم أنت عبقري يا بيل غيتس

2016-6-16

11-قًبلةُ الحياة

لو تعلمين كم أحبك..وأحب الأرض التي تمشين عليها، أعنيها ولاأكذب...هل تسمعينني؟

مازلت فخورا بحبكِ وعطائك للفقراء، لن أنس بسمتك وسعادتك كلما تعودين من عملك هذا سعيدة تغطين البيت بروح الحياة الحقيقية، وطعم التفاؤل،، حتى أنني فخور أيضا بتطوعك في تعليمهم مجانا، نعم أحب عينيك السوداوين، الصغيرتين، اللتين كانتا تحكيان بلا حروف حكايات كثيرةن تنطقان بلا نطق كلمات أثيرة، أفهمها وحدي ولاأبوح، ابحا

لي وحدي، كحكاياتك عندما كنت صغيرا جدا،ولكن.. لماذا كففت عن روايتها لي ؟هل نسيتِها؟.

ربما لأنني بلغت الخامسة عشرة من عمري، لكن هذا لايعني أنني لست بحاجة لحنانك وحبك وعطفك..هل اعتبره سبباً مقنعا لكي لاتقبّليني أبدا ؟ تقرفين من ملابسي؟، فأغسلها وحدي!!؟..

وأنظف كأسي وحدي، وطبقي وكأنني جرثومة معدية في هذا البيت البسيط؟.صارت الوحدة صديق جديد في حياتي، أحادثها وتحادثني، أحاججها فتحاججني...

و تنظرين إلي نظرة ازدراء قاتلة، تحرق كل ماتبقى لي من عقل، تثير ألف تساؤل وتساؤل أشعرها كتصغير ودونية...تحاولين تجنبي وكأنني مصاب بالجرب!...وكلما قبلتِ إخوتي، وعانقتِهم أمامي أتحرق شوقا لصدرك الحنون..للتعرف على سبب هذا الجفاء..!!اصرخي ازعقي، أنبيني ولكن لاتصمتي صمت القبور...أشعر بالحرمان يصفعني على وجهي، يترمني محطما ككأس زجاجية مهشما كجدار آيل للسقوط، ويمد لي لسانه شامتاً، واشتعلت نيران الغيرة عالية لافحة، فلاأملك سيطرة على نفسي...فهي تحرق ماتبقى مني، لأجد نفسي أقفز على أثاث المنزل مناديا في قلبي:

-أنا هنا..مازلت أحبكِ جدا ...انظري إلي..انظري نظرو واحدة فقط..

لكنك لم تعيريني انتباها ...تودين لو تضربيني ، فتكفي ولاأدري لمَ أيضا تهربين مني، كل يوم..تهزمني نظرتك الغاضبة، تلجمني عن السؤال، تكبل حروفي ..

آه لو تعلمين كم أنا متفوق في مدرستي ياغالية، فقط لأرضيكِ، ولاتتكلفين عناء إلقاء نظرة واحدة على ورقة محصلتي النهائية...أخيرا فهمت ..كانوا يقولون عندما نجتمع بأقرباء لنا في كل شهر:
- كان سبباً في موت أبيه..

أبدا والله العظيم، من قال هذا؟!!، لم أكن أنا، لماذا تقولون ذلك؟ لماذا تتهمونني ؟، كيف تفكرون؟.

هل فعلا هذا هو السبب الذي جعلك تكرهينني؟.ماكنت لأفعلها وهو أبي.. ماكنت أبدا، آه لو تسمعين دفاعي للحظة، لقد كانت النيران تأكل مستودع الوقود البترولي في أعلى المنزل، وماكنت لأعرف كيف أتصرف، كنت حينها في العاشرة من عمري، وإخوتي صغارا لايعرفون عن هذا الأمر بحال عندما دق باب المنزل ونبهنا الجيران لذلك الأمر، ركضنا سويا لسطح الدار، ليأكل نصيبه من رصاصة طائشة على صدغه...عندها صرخت بأعلى صوتي:

-لقد قتلوا أبي...قتلوه بطيشهم وجنونهم، ماذا أفعل؟؟، إنه أبي..ناس همج رعاع، أغبياء لصوص يقتتلون بلا سبب. مهم..من كانوا؟ لاأدري حقيقة ...لكن مؤكد هم حثالة البشر، هم قعر وعاء التصق فيه بقايا أرز محترق، لأنهم يقتلون الأبرياء...يتقاتلون ويخربون بيوتهم بأيديهم، لذا سيبقون مقتتلين لأنهم لايتعلمون أبدا من أخطائهم وخطأهم أبي...

عندها عانقتُه مناديا أحدا ليسعفَني، وماسمعني سوى جارتنا في الطابق السابق لسطح البناء، والتي أخبرَتكِ فصعدتِ، وقد صعقتك المفاجأة مثلي...ورغم محاولات المسعفين المحليين ، لكنه كان قد فارق الحياة سريعا ، هاربا من دنيا أعيته في بلوغ أدنى درجات الرزق، رصاصة في الرأس مميتةن لانجاة بعدها أبدا، قال بسرعة :

-لاتنسى أمك وإخوتك فأنت الكبير...

نعم سوف أترك المدرسة كرمى لك، كانت نظراتكِ تذبحني كل يوم ألف مرة، وكأنك تصوبين رصاصة أبي نحو صدري أنا..

وكلمات معلم المدرسة تخفر في أذنيّ أخاديدا عميقة:

-قال أحد العارفين :

إذا بدأ والدك بمداراتك وإنتقاء كلماته معك خوفا من إنزعاجك فأنت ولد عاق .
-لا لست أنا، هم فقط...إنه يثق بي تأكدوا...لم تأولون وتضعون معانٍ لم يقصدها القائل؟، غش ولصوصية معنى..كما قالها معلم المدرسة، عندما نفهم كلامه ونحمله على غير محمل، مازلت أغسل ملابسي وحدي، وأزدرد بقايا الطعام، وكم سعدت عندما اصطحبتني أمي يوما، إلى طبيب نفسي بسبب شغبي المستمر، كنت أحسبه دلالا وعناية، كنت أذكر تماما صراخي بحجة الغناء، وأنا كنت أناديك في عمق ذاتي إنذارَ استغاثة الملهوف، لقد شخّص الطبيب الداء بأنني أعاني التوحد المتأخر، وأمراض أخرى مضحكة، ، وأنا أدرى بنفسي، لا لست متوحدا البتة، بل أنا متوحد بكم...

تناولت العقاقير المخدرة لأنام وأريحك مني، فشعرت بالخبال الحقيقي، أشباح تلوح في الأفق شامتة كل شيء كان يتأرجح في نظري حتى عقلي، فأقع كلما حاولت الوقوف...، ولم أعد أشعر برغبة بالدراسة، حتى أسعفتنِي وتوقفتِ عن إعطائي إياها...كان إنجازا..نعم كانت المرشدة النفسية مؤخرا لطيفة جدا في الجمعية الخيرية التي تساعدنا، عندما قالت لأمي:
-العلة فيكِ أنتِ وليست فيه، لعلك لاتقبّليه ولتعانقيه، أعطيهِ حبك ولو قليلا وسوف يتوقف عن المشاغبة والأذى...لكنكِ لم تصدقينها بداية، وصورة والدي التي كنتِ ترينها معلقة على جبيني...فتتهمينني بقوة حتى في وجدانك.

كل يوم وكل لحظة.. تفصح عيناك اتهاما وتهمة جديدة ملحقة بالأولى...حتى كدت أصدق أنني لاشيئ، أنك أقوى من ذبذبات الأخبار الكاذبة والمحبطة!.

لااااا لايمكنني قتل أبي أبدا ..كيف تصدقين الحكايات وتكذبينني؟، لست أو ديب الروايات....ليتني لم أقرأها في عينيك ، لقد تقزمت تلك القصص ومسخت في صدري، وصارت شبحا له ألف عين وعين..لاداع لتذكرها الآن...

ومرت أمامي يوما ما، ليلا ونهارا سيارات مكشوفة تحمل الناس وحاجياتهم من حولنا، فهناك خطب ما مؤكد في الحي ..خرجت وتأكدت أنهم قد قطعوا الكهرباء والمياه قاصدين، لنرحل عن ديارنا، والسبب لاأدري، ربما تربتنا الحمراء أغرتهم بإشادة علب الكرتون من أسمنت، لتحرق الزرع والضرع، وآن أوان الرحيل، وياسمينتي الجميلة التي زرعتها بيديّ ، مازالت تغمزني...أن ابق معي..لاتتركني، فبيننا أحاديثَ أودعتها التراب..لذا لن تمحى..

سمعتِ ندائي من جديد، وتقبلت مني لهفتي، وخرجنا نبكي معا لأول مرة بصوت واحد، نعم لأول مرة نبكي معا.. ونتلفت من حولنا وكأننا متهمين في استقرارنا ورضانا ...وهدمت الأبنية من ورائنا والبيوت أمام أعيننا ، غبار الألم يحيط بنا ونحن بقربها نستنشقه ألما، ننظر من نوافذ الأهل القريبين والأقرباء، نكلمهم بلا حروف، دوركم التالي، فهل نعود يوما ما؟...كنتِ ترينها من بعد وتنظرين إلي نظرة الحكايات القديمة...قلتِها أخيرا وكأنك تجمعين قطع زجاج محطم:

-شكرا لأنك أنقذتَنا..وشكرا لأنك حملت معنا كل محصولنا الزراعي المتبقي..كشك وملوخية وبامياء يابسة فول ودبس الرمان وو..

-شكرا؟؟.

عانقتها بحرارة جدا، عانقتها بقدر غيابها عني تلك السنوات، عانقتها بروحي وليس بذراعيّ عانقتها بقدر العمر الذي فات، بكيتُ بقدر ماضاع مني، نعم مكثت بحجميَ الكبيرعلى حضنها الدافئ طويلا جدا ، لم تعد تقول لي:
- هناك كهرباء تأتيني منك عند اقترابكَ تؤذيني وتفصلني عنك، فتصيبيني بحرارة حارقة... كانت تجمع في حبها الآن، كل الأعوام المنصرمة التي فقدتها ، وجدتني أقول فجأة:

-رجاءً لاتتزوجي غير بابا.... فهذا سؤال صعب صعب جدا عليّ، دفعت ثمنه سنوات من عمري..فربما...

نظرتْ إلي..ونظرت لصورته في هاتفها النقال...وقالت:
-أنت سيد البيت الآن ياعدنان ...هل كنت تشك في ذلك يوما ما؟..

2018-7-30

12-سنونو الأحلام...

لم أشأ أن أزيد المشكلة تأزما، فقد فاض الإناء بالشد العصبي بين أفراد العائلة الكريمة، وخاصة من وراء أخبار لا طائل منها سوى زيادة الإحساس بالعجز ومعرفة ما وراءها فضولا وألما، وقد زاد الطين بلاً الأمور المعاشية التي تزداد سوءا يوما بعد يوم وحتى لتخال كل عائلة تغوص في مشاكلها المعاشية حتى ذروة رأسها رغما عنها...وتغرق فيها حتى النخاع.

خرجت من منزلي مثقلة بثرثرة تضج فيها أذني، تظهر تنافر الملتحمين عائليا، ومن جراء حصار نفسي ومحدودية في التحرك في وسط يضيق يوما بعد يوم...و بلا سبب وجيه ، ولا فائدة مرجوة سوى زيادة في المعاناة وتمددها مع الزمن، وكأننا استعذبنا جلد الذات عوضا عن أن نكون عالما جديدا فيه ريح تفاؤل... ومواساة قلوب، وتسرية عن النفوس بطرق شتى..

و تلك النماذج التي تراها حولك مؤلمة من جراء واقع مرير ، تراها يومياً رغما عنك، وتحار كيف تقدم لها يد المعونة ولا يكاد يكفيها كل ما تفعل...

الغيوم السود ما عادت ممطرة، و حتى العصافير لم تعد تبيض في منزلنا...ولا القطط بات تلد.. والأزهار أبت أن تفوح بعطرها الأخاذ، وكأن كل شيء تضافر مع بعضه ليشكل مرآة لأزمة أكبر...تكونت داخل منزلنا..

كانت أصوات الموت حولي تنذر بسوء الظروف في بلدي يوما بعد يوم، وازدياد الأزمة أزمة ..وبسوء مزاجنا أيضا...

خرجت متنصلة من كل مسؤولية، متردة عن كل مهماتي.. ولجأت للمصلى من كثرة الضوضاء في رأسي، و نحو مجمع كبير في حينا اعتدت على ارتياده ، وأخشى أن يلفظني يوما من كثرة ما حفظت زواياه كلها ومررت بها...وزرته حتى الملل..

كانت الكهرباء مقطوعة كالعادة، وأزيز المولدة الكهربائية يوحي لك بقرب طيران طائر سفرك الجميلة.. والتي تنقلك لبلاد بعيدة جدا...تنسيك كل ألم...

أحسست عندها بأن بعضا من الأوكسجين ازداد حولي لتستنشقه رئتيّ براحة ، وكأنه جديد لا غبار فيه ولم يستعمله أحد.

انتفضت بقوة من مقعدي.. تقدمت لكابتن الطائرة بشهية، وقلت له :
-علمني القيادة، فنظر إلي شزرا قائلا بعينيه:

- عفوا من حضرتك؟.

عدت أدراجي كاسفة لمقعدي بلا تعليق، وأمسكت بقيادة قلبي. ورحلت به بعيدا جدا...إلى حيث هاجر الأولون...وكأنني استحضر من يواسيني .

لكن المضيفة نادتني، كي أصف للركاب ما يروه من علٍ...وقد فاجأني طلبها جدا، فرأيتني أسكب من صنبور الأحلام ما أراه بقلبي لا بعيني...أصف لهم عالما من الموسيقا الجميلة.. وغناء الأطفال يعلوا حتى يصبح مزمارا ضخما يسير على هداه

جيل كامل...يحل في مركبه ما تبقى من كائنات صحيحة...نقية.. تمضي وتمخر عباب الزمن نحو الأفضل...الأفضل دوما..

كانوا يحملون أحلامهم فوق رؤوسهم ، يمضون بصمت رهيب وبابتسامة عذبة رائعة.. تسعد الناظر وتسمر عينيه وتتغلغل في قلوبهم..

انقطع الأوكسجين فجأة .. وتقطعت أنفاسي، وجف حلقي.. فوجدتني وسط جمهرة من الناس يهمهمون حولي :

-لقد أفاقت أخيرا...

الغريب في الأمر أنني لم أسألهم ماذا جرى.. و لا نثرت أسئلتي كلها والتي جالت في ذهني حينها.. كثيرا منها كثيرا جدا...ابتلعتها كلها...

ورأيتني أمضي وسط إشارات استفهام كبيرة...وهمهمات ما توقفت حتى ابتعدت..

2014-9-16

13-الخروج من الشرنقة...

لقد أحكمت خناقها على جسده المنهك... بدأ تنفسه يتصاعد ويقصر مداه...يشعر أنه سيموت بعد قليل...

مازال يدفعها بكلتا يديه.. لا يريد الاستسلام أبدا، يحاول تمزيقها بقوة لهفته لاستمرار حياته...نعم من المؤسف أن يموت الان.

ما هذه الرحلة غير الموفقة البتي قرر خوضها وحده...لم يسمع لنداءات التنبيه...أبدا لا يتعلم من اخطائه...

كان الطريق موحشا جدا...قفرا جدا.. كله لأجل يكتشف أرض الوحوش......

لقد ضاقت عليه تلك الشرنقة مؤخرا ...يخشى أن تخور قواه فجأة ...يراوح بين قدميه ويتكئ على الأخرى ويعيد المحاولة من جديد...

يحاول الاستراحة بين الفينة والفينة لئلا ينتهي الأوكسجين فيها.. فقد باتت رائحة الهواء فيها مقززة.

مازالت تستعصي عليه ، ويزداد جدارها صلابة...إنه يقرضها بأسنانه.. يجب أن يعيش، نعم يجب أن يعيش.

يبحث عن نقاط ضعف في جدارها ليقضم أكثر...فينفذ للخارج...

هل كل الشرانق هكذا؟، كيف صار فيها أصلا؟!!!،سؤال لا جواب له، لقد تأخر في اتخاذ قرار الهجوم والخروج...يا الله.. ما ذا يحصل هنا؟؟؟

من يخرجه من هذا البلاء والمصيبة؟؟؟

لا أحد يسمعه في هذه الصحراء المخيفة...

انفرج ثقب فيها فجأة من غير توقع...أصابه الذهول.. هل حقا سأرى السماء والشمس من جديد؟...

عندما انفرجت عنه قليلا و هو مازال يتمتم بأدعية حفظها منذ صغره....يسجد ويتمتم...يكرر ويعيد ما كان في الذاكرة.. ينبش فيها عله يجد تعويذة أقوى مفعولا...

تنفرج أكثر...يسجد.. يتضرع بحسنات أعماله...يعيد الكرة.. يسقط من رباعيته سناّ!! ، يصرخ ألما...

يمسكه بكلتا يديه حزينا.. يضعه في جيبه..

-سوف يعيد سنه لمكانه عندما تتحسن الظروف...يحاول تكسير جدارها بأظافره.. يتكسر شيئا منها...

يرفس بقدميه ما تبقى من عزم له حتى تنفرج الفرجة أكثر.. يتذكر والده عندما هجر الناس قائلا:

-كلنا غرباء في هذا المكان...لكننا سنعيش.. سنعيش بطريقة ما...كلهم حاول تجاوز هذه المكان لمكان أكثر روعة...

لقد خربوا مكان معيشتهم و ما عرفوا كيف يبنون البلاد كما يجب ، عاشوا على ما تبقى لهم من خيرات ونسوا كيف كانوا يرفعون منتوجها قديما ...لقد كان طرأ عيب في تفكيرهم ما استطاعوا إصلاحه أبدا...لقد تراجعوا حتى باتوا يتهمون العالم في ذلك.

إن المكابرة على العيوب كمن تأقلم على الظمأ طويلا...هل سيطيب له العيش وهل سيعيش سويا؟، وهل سيعمل دماغه بجدوى؟.

أي مكان هذا الذي كان يذكره والدي؟.. مؤكد ليست تلك الشرنقة ،فقد كان عالمه أوسع وأجمل.. كيف أفاق فجأة ليجد نفسه هنا؟.

يجلس متربعا يبكي حزينا لما آل إليه أمره، يخشى أن تكون قواه قد خارت...يتساءل محتارا:

-كيف وصلت لهذه لمرحلة الحرجة ؟، من نسج شرنقتي؟، من وضعني فيها؟، كيف حصل وأنا حي؟...

كف حصل وعيناي مفتحتان؟.

تخونه الذاكرة فهو لا يتذكر فعلا كيف حصل ...تقفز لذاكرته عبارة والده:

-كل ذنب يذنبه ابن آدم ويقترفه ينسج خيطا في مشنقته...

هل هذه هي المشنقة إذن؟.. هي لا تحاصر رقبتي؟!!..هي تحاصرني جميعا..

ينهض من جديد...تزداد الفرجة اتساعا ...يحاول الخروج...ومرارا.. وتكرارا...ينجح رويدا رويدا ..

لكنها تشد على خاصرته قليلا ...يدفع جسده بكلتا يديه فينقذف خارجا ويرتمي على الأرض...ينظر خلفه فيراها مكسرة ممزقة.

-أين أنا؟

جميل أن ينقذ المرء نفسه بنفسه...فرب منقذ هو في واقع الأمر غير منقذ...

يشتم رائحة حريق بائت...خطوات ترج الأرض تحت وطأتها وتهتز...ينظر حوله فلا يرى آدميين...

يفاجئه رأس مقطوع يمشي وحده.. يبتسم له ويمضي...

يتلفت فزعا.. ما هذا؟.

.فيراه يمضي دون أن يلتفت...أيادي تمشي وحدها...بعينين مزورتين...تنظر إليه ضاحكة وتمضي...

وقلوب تنزف دما على قارعة الطريق...قد تحررت الأعضاء منها...وطريق يغوص فيه ما به من قرار...

فيحاول المرور فيه بحذر...

يركض فزعا عندما تبدأ الرؤوس بلحاقه...تصرخ تنادي:

-مازال حيا...

يركض نحو اللا شيء...مازالت الجبال قائمة على أصولها...يركض نحوها...يتسلق صخورها بعيدا عن هجوم الرؤوس المقطوعة...تلحقها الأطراف صارخة:

-مازال حيا...

يقع مرات وتقرضه أسنانها....يحاول الفرار بنفسه.. متسائلا:

-ما هذا الذي أراه؟، هل هذه بلادي فعلا؟.

يرددون:

-مازال حيا...

يبكي.. يكاد ينهار...تمنى لو رأى ظل أحد يعرفه من قريب.. فيضمه كما كان.. يشكو له حاله يقول له كلمة رفق واحد...

يدخل كهفا وقد أدمته كثرة الهجوم...يهدأ عندما يضع صخرة في فوهة الكهف...فيسده.

يتذكر كلمة والده:

-السكون موت...

ينظر حوله فزعا.. لا يرى شيئا سوى كائنات ميتة...في الأرض...

إلى من يلجأ؟، أليس الله هو الله؟...ينظر إلى الأعلى...يتدلى فوق رأسه العنكبوت...

يحاول النوم... فهو منهك حتى الثمالة ، فلا يستطيع ،تتشكل خيوط رقيقة حول رقبته...يدفعها بعيدا عنه.. لكنها تتشكل رغما عنه.. كغزل البنات الطفولي ، بلا لون و لا رائحة .. لا بل كخيوط عنكبوتي تريد إعدامه.

يشعر بالجوع يحرق معدته...تصطدم بصخرة الكهف أصوات هوجاء...ترجه ، تنادي..

-مازال حيا...

يخرج القرآن من جوفه مرتلا...كان قد حفظه صغيرا...

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ..

يتخذها تعويذة...يكررها...يشعر بالراحة...ينام...ليستفيق على صوت نقر تقوم بها يداه ليخرج من شرنقته من جديد...[4]

2014-5-29

14-قبيل لحظة الإعدام.....

لم أكن أدري، أن هناك حكم بالإعدام بلا موت، وأن الموت حياة جديدة لاتعني الإعدام....

---

[4] نشرت لأول مرة في موقع ديفيان آرت الغربي مترجمة ومجلة فكر الخليجية.

أو أن هناك موت خالٍ من رجفة ماقبل الموت، خالٍ من علامات الموت الحقيقي، من تمدد الوجه وشروقه على غير عادته، حتى ليخيل إليك، أنه مسرور، حتى شخوص البصر له درجات، وانفراج الشفتين له علامات، وقد يبدو مخيفا، فيربط أحدهم الوجه بخرقة مهملة، تبين أنه انتهى تماما، وأنه توقف عن كل نشاط...وترك وراءه عمله، يربطونه لأنه شبع من الحياة ولم يشبع، وربما حتى لاتظهر أسنانه المهترئة، وليحافظ على مظهر موت وقور، حتى أن سقوط القدمين وانخساف الصدغين وانفصال الزندين، قد لاينتبه إليها المكلوم بحادثة موت عزيز، إنما ينتبه لآخر لحظة فقط شاهده فيها، وموقف ملفت حصل حينها عبر ضيق الصدر والحشرجة المريضة.وقد يموت مريضا أو فجأة، أو عبر حادثة طارئة، وقد يرضيك فعله للخيرات في رحلة حياته القصيرة، فتمدحه وقد تمدحه بغير مافيه، لأنك ستفتقده أخيرا...

لم أكن أدري أبدا، أن كل هذا بداية فقط ، فموت إنسان ليس هو الموت الفيزيائي الذي يغيبه أبدا بل موت التهميش، موت الهدر العقلي والروحاني، وموت الغفلة وموت العطلة، ، يكفينا خبر موت أي عزيز، لكي نبكي على أنفسنا كثيرا...

ماأعرفه من المشاعر المسببة لشبه الموت النفسي بالذات، أن عالم الأفكارالمشوشة التي ستأتينا من تأنيب الضمير والتقصير الذي يجعلنا نقول علنا أو سرا:

-ليتنا فعلنا هذا لأجله..ليتنا لبينا رغباته على صعوبتها وإحراجها.

إنها تنبؤمتأخ، عن أن المرء ليس متصالحا مع عالم المشاعرالحقيقية!..

شخصيا لو عدت للوراء زمنيا، لسنوات طويلة، لسألت نفسي طويلا:
-هل كنت سأوافق على تلك الخطوات المنافية لمنطقي وقناعاتي أخيرا؟، و الذي أعلن عنه في كل سلوك؟،فأجد العالم من حولي واسعا منيرا ورافدا وسعيدا؟،أكثر مني.فألوم نفسي لأنني لم أكن جريئا في اتخاذ قراراتي؟، أم سأندم لأنني لن أعود أنا؟.بل أنا شخصية مزيفة خارج جغرافية المنزل وحقيقية داخلا.فالازدواجية والانشطار النفسي شعار الحداثة، لقد صرح الدكتور مصطفى حجازي في وجهنا وفي كتابه الإنسان المهدور:

-كلكم مهدوروا الطاقات والنفوس والمعارف...

نعم أنت مهدور الطاقات داخلا، لكنك تعوض ذلك بالحديث عن ماضيك المشرق، أو عبر حوار متفذلك مفتعل لتغلب من هو أدنى منك خبرة ومعرفة ومنزلة..!هاهو صديقي سافر مضطرا للخارج ومات ثلاث سنوات متجمدا في حسرته لانتزاعه من بيئته، لكنه جاع

كثيرا، فتعلم اللغةالجديدة وصار مترجما، وعاش من جديد...لم تمض تلك السنوات بعد عندي...

لكنني أرى أن حبل المشنقة الآن غير محكم على رقبتي!..فالواقع معقول حولي أو خلته كذلك لتأقلمي مع انزياحاته، وكنت لم أبلغ من العمر عتيا... وهاتفي النقال يحمل أغانٍ ممنوعة، وصوت رنة هاتفي تحمل صوتي الصداح بالحكم القديمة وإضاءة شاشته منيرة جدا وساطعة أحيانا وأحيانا كثيرة لاترى، وأحب النزهات ولقاء الناس، وأحب أن أرتدي ما يثبت نظافتي، وأتناول الطعام الصحي ربما أناقش قليلا وأناصر رأيي...ورأي الناس يهمني جدا، لأعرف من أرافق، لكنني لاأحب الزحام، ولا أنصاف الناس، ومازالت أمور عديدة تبهرني وتثيرني...هل هذا يعني أنني في منتصف العمر؟ فمازلت مكترثة بمن حولي ولو قليلا...ولكن لماذا حُكم علي بالإعدام؟.لم يجبني أحد حتى الآن!.

لكأن هناك سعادة وتعاسة مترافقة معا كالظل، لم تكن كاملة يوما ما، وهذا سبب تقلبها للطرف الآخر!...فكيف نثبتها؟ألا يوجد لها مقياس كالغرام والكيلو؟. فنقيس حجم سعادتنا ونعدل الكفة ببعض المغريات، أو نعدل سعادتنا خوف الاندفاع الفارغ ، فنشرب قرصا مخففا؟ فنتوازن!.

مازلت لاأفهم، لماذا دفع بي والدي لبلاد الغرب؟ ولم أكمل تعليمي بعد، فلم أكن قد تجاوزت الصف الثالث الإعدادي؟، لن أعود مهما فعلوا..فأنا أعمل وأسوق السيارة، فماشأني بالعلم؟.ورغم هذا مازلت وحيدا، أريد أن أقضي حاجتي وحدي، لكن أحدا ما لايسمعني...فتنهال النصائح من كل حدب وصوب تسيل في أذني سيولا حتى الطرش، هل أموت وأنا أحتاج لتفريغ مثانتي مثلا؟، وحيدة في الدنيا ووحيدة في الموت، وربما لا أجد نفسي وحيدة بعدئذ...لعل صبري يأتي بخير،لم لست آسفة لموتي؟ لن يصدقني أحد...أنني بريئة..الغريب أنهم قرروا أن يميتوني بجميع الأنواع!وهل سأموت على مراحل؟..!!لو يعرفوا أنني مت قبلها مئات المرات، منها عندما كنت في بلاد الشمال عندما كانت سيارتي مظللة النوافذ باللون الأسود، حيث أخرجني شرطي منها، قائلا لصديقه:

-هذه السيارة التي كنا نبحث عنها، وجنسيته العربية التعسة تثبت المعلومة، فكوا حزامي الجلدي دكوني في سيارتهم مكبلا، وهم يتفحصون السيارة بدقة جدا، وكلاب تنبح حولها...وبعد وقت غير قصير، كنت فيه تلوت القرآن كاملا عدة مرات غيبا ، فاجأتني نفسي بذلك فعلا ، ولم أدر انني حفظته عن ظهر قلب ،وتلوت الفاتحة وذكرت الشهادتين لأموت مرتاحة بلا ديون..اقتربوامني رويدا رويدا محتارين، تأسفوا قائلين بلغتهم:

-كنا نعتقد أن سيارتك مفخخة كما وصلنا، نحن نعتذر جداجدا، وإن وجدت أن تشكونا للسلطات فافعل نحن نستحق، لكن صدقنا كنا نطبق التعليمات فقط، خرجت كالمنتصرة، وكنت أعتقد أنني مت فعلا، حيث أن الشكوك كما أعرف وحدها قد تعدمك حياتك، تحاصرك وتضع إصبع الاتهام في عينيك فتعميها، استرددت كرامتي من جديد بإرادتي، ورغم عدالتهم الواضحة وصدقهم، تذكرت أنها غالية جدا، خاصة أن مخالفة السير عندهم قد تتجاوز النصف مليون في عملتي المحلية...عدت للحياة من جديد ، وتوقف خفقان قلبي، بل عاد قلبي للحياة بعد أن كاد يتوقف..كيف أن سيرتي الحميدة في بلادي تتحول إلى وحش في الغربة!.فليعدموني، خاصة أنني غدوت وحدي في هذه البلاد، رحلت أرواح أهلي للسماء، بسبب مجانين يتقاتلون بلا هدف واضح، ربما سمعوا صوت الصدى من بعيد، فسبب لوثة في عقلهم، أو جرثومة كانت في الهواء فدخلت من منخارهم!.فعطبت دماغهم.

مابقي منهم سوى حفيدة ذات أربع سنوات، شقراء بريئة، تربت تحت جناح صدقات الجمعيات الخيرية، فلم أكن حينها أبات سوى في نصف منزل مهجور تهدم نصفه، وعند البرد كنت أضمها لصدري حنانا، كانت تناديني مرة ماما ومرة بابا!.

حتى اختارها ذاك المرض الماكر، فأنفقوا علينا مالهم صدقة لعلاجها، كانت تتقيأ، يسقط شعرها تنظر إليه وتبكي، أواسيها بأنه سيخرج أجمل منه بعد شفائها، أشقر أجمل وأكثر لمعانا ذهبيا، أتذكر عند أخر حقنة مخدرة أعطيتها إياها، نظرت إليه قائلة:

-أنا أحبك جدا، لأنك تطرد الألم..
عندما هدأت تماما، ذهبت إليهم قائلا:

-لاداع لمالكم، شكرا لكم لقد ماتت..

عدت لتلك الجدران المتهدمة أبكي وحدي..أليس هذا هو الموت بعينه؟.أن تشعر بلاشيء حولك..دوما كنت أخاف من الغرف المغلقة، ومن العقول المغلقة التي لاترى سوى مايهمها، كل الحسناوات لم تقبل بي زوجا، لأنني بت شابا أصلع وبدينا بعض الشيء...نعم أنا ذكر....هذه هي الحقيقة الآن..
لو كان للغرف المغلقة نافذة صغيرة فلابأس، فأمي لم تكن تجعلني أخاف من أي شيء، بل دفعتني لأجرب كل مايمكن تجريبه وأنا صغير، صبوؤة هي لما تريد، وعنيدة هي عندما تصر على أمر.. حرائق شبت في طريقي عندما صرت يافعا، لم أستطع إخمادها، قالوا لي ابتعد عنها فقط، فالناس باتوا عبارة عن عقد نفسية تمشي في الطريق، حتى المتسلط منهم، ذلك الجائع دائما، النهم للمال، الوقح الذي لايشبع أبدا.فتحُ الباب فدخل النور، يخدعني بأن حرية قريبة سوف تأتي، دفعوا لي طبقا من طعام أسود ذو رائحة

نتنة، وأغلقوا، لم يعد للصراخ فائدة، يجب أن أتقبل نهايتي واعتبر نفسي مت نهائيا.رغم كل الأصوات المخيفة حولي.رأيتها..لمحتها..نعم هي هي...استقبلتها بحرارة الملهوف، رأيتها في الطريق تتلمس الجدران تذكرت كم بنيا صروحا من حرير، كيف تهاوت علي رنات الهروب من وطن جريح، كنت متسائلا بفضول قاتل بعد تحية باردة ونظرات تتذكر كل شيء باستغراب وكأنه حدث البارحة:
-أعُدتِ فعلا؟

-نعم عدت وقد اتصلوا بي قبل إقلاع الطائرة، أن قرارإقامتي في بلاد الغرب وصل واكتمل!!!، وعلي العودة لاستلم الأوراق، عدت بعد أن أغلقت أذنيّ عن سماع صوت والدي الملهوف الذي كان يصرخ متألما:

-عودي فورا لوطنك، فأولادك مكتومين وأنت شبه عمياء، زوجك حمار شغل لايتوقف، مقابل تقصيره في أمور أهم، وأنت خارج اهتمامه تماما، أنت أرخص من نقوده، التي يجمعها هوسه المجنون، وعندما دخلت ضرتكِ البيت أقفل عليكِ الباب، وصرتِ منبوذة تماما، بالكاد تأكلين...هل هذا صحيح فعلا؟.كيف تسكتين على ذلك بالله عليك؟. هل تنتظرين من يشفق وينقذ؟ تخيلي لم يحدث!،كيف فعلتِ؟

-أحبه..
صرخت بتعجب:

-ماذا تحبين فيه بالله عليك؟.ماأغباكِ.

-.....كله على بعضه...

-والآن؟
-أكرهه؟

- نعيما، هل هذا هو حب الأفلام؟

-ليس تماما.يشبهه..

-كيف ليس تماما؟؟؟ أجيبيني...

أمسكتها بلا تحكم بنفسي المتهدمة من الداخل، مؤكد كانت تهذي...وهل أنا أب حكيم حتى انتظر عقلها ليعود للعمل؟، أشاحت وجهها عني، وابتعدت، وقد أدهشني أمرها، تلك الذكية اللماحة، كيف تحولت إلى غبية جبانة هناك؟، تلك التي كانت تملك عشرات الاختراعات، .. يالله جل الأذكياء مجانين.نظرت إلي فاهمة ماكنت سأقوله..عاجزة عن إيجاد رد مقنع، بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين من عمرها..وفاتها قطار

الإنجاب..بعد تسع أولاد..فقلت مودعا:
-والآن؟

-لاشيء..

-بل كل شيء..

-قالوا لي أن الزواج التقليدي يكرس التكامل غالبا، فماينقصك يكمله الآخر، ونصف الحياة تعود فالعاطفة قد تدفعنا لمهاوي الموت..

هل أنت مقتنعة بذلك فعلا؟.وسعيدة في حياتك الآن بعد أن فقدت عشرين سنة من عمرك راحت هباء؟.الزواج مشروع كبير، تجاري اجتماعي أكاديمي، مشروع كامل متكامل، تتعلمين من خلاله معنى الحياة، في كل حركة وسكنْ، الزواج أمان، رسلة وهدف حقيقي تقدمين من خلاله جيلا بناء يكمل الطريق..

والآن؟

-ماذا أفعل الآن؟.

كنت سأبادرها بسؤال مقابل:

-ماذا أفعل أنا الآن؟.فأنا لست والدها الآن بل...

جاء والدها فأقلها لصرح كبير اسمه جامعة...تركتها ومضيت..وعلى لساني ألف سؤال، أجلته لإشعار آخر..وقد صار لمفهوم الموت عندي ألف معنى. وللغربة آلاف المعاني، هل هذا موت باطني أم شيء آخر؟.لكنني كنت على يقين أنني مازلت أحبها حباً عفيفاً غارت معانيه حتى تلاشت أطرافه.أن نكون أو لانكون..تلك هي المسألة...

2019-9-19

15-أين عيناي؟

لقد نام كثيرا..نام أكثر مما يحتاج إليه، يبدو أنه قد أشرق النهارالآن، لكن الشمس مظلمة هذا اليوم، أمر غريب فعلا، ربما لاتريد أن تنشر أشعتها الغاضبة ..فالبشر يثيرون الغثيان بسلوكهم الغريب الناكر للجميل، أو ربما كان يوما مملا وهي غير راضية عن البشر، بكل الأحوال، يجب أن نفيق، انتهى النعاس، وتبخر وهرب منا،ودب النهار على أربع...يوم ممل جديد، مع الألعاب الإلكترونية غير الممعتة، لقد حان الآن النهوض فعلا ويجب أن نفتح عيوننا للأمل ولاأمل في بلاد يخبو نورها يوما بعد يوم....من قال أنها بخير؟ حاول فتح عينيه فلم يفلح!!، حاول ثانية ربما العمش غطاهما من إدمان التسلي بالألعاب غير الصحية، فركهما، فربما هما ملتصقتان بجفن مريض، لم يفلح!، نادى أقرانه من حوله، وأدرك متأخرا أنهم في العمل المضني، لجلب لقمة تسد الجوع، نادى لأول مرة منذ خمس سنوات يالله....لا لم يمت الإله كما ورد في كتاب لم يتذكره بعد، الغرب يتقنون التحليل للظواهر المرئية، الفيس بوك يقول هذا ، هو يعج بأفكار البسر الغربية العجيبة، وتلقى لها سوقا!، لكن الإله لم يمت، هو يعلم بخطأ ذلك، وإلا لفني الكون...حاول فتحهما من جديد عبثا...نهض متجها إلى الحوض المرتبط بصنبور وسخ كالعادة، غسل وجهه المعتم، لم تفتح عيناه أبدا. حاول بأصابعه فتحهما!! لم يفلح أبدا، صرخ بأعلى صوته ماذا هناك؟....ياالله....هل الحساسية التي يعاني منها صدره في الشتاء القارس فجعله كالمصاب بالرشح فيبقى معه الزكام طويلا جدا؟، وهل وصل إلى عينيه؟، تلمس الجدران بصعوبة جدا..وصل بعد تعثر لهاتفه النقال ، تذكر أنه يعرف الكثير عن فنيات التقنيات، ولكن دون أن يستعملها، أو يستثمرها بعمل، حوله إلى لغة العميان وهو يبكي، بدموع سوداء حارة..هاتف رقم الاستعلامات للوصول لرقم طبيب عيون..اتصل به ولم يجب..حاول مرارا لم يجب أحد..يبدو أن الوقت باكرا جدا.أو لأنها عطلة رأس السنة الميلادية!.تذكر أنه جائع جدا، بل أكثر من جائع، يتناول وجبة واحدة توفيرا للنقود، لم يبق معه سوى موزة واحدة خبأها عن العيون..تناولها بشراهة ولم يشبع، أين الماء؟ تلمس الجدران بصعوبة، فهو لم يجرب مرة في حياته أن يكون أعمى....كان الله في عونهم، سوف تخرج روحه من عينيه من الضيق!!!، لم يجد ماء يبدو أن شركائه في السكن خبأوا زجاجاتهم بدورهم أيضا...عليه الذهاب لجلب الماء! من الخارج..ماذا سيقولون عنه الآن؟ كما قال عنه خاله عندما رفض عملا قدمه له، بحجة خوفه من الفشل!.حاول فتح عينيه مرارا لم يفلح..كرر تلقائيا:

-يا الله..أين أمي وأين أبي؟ وأين إخوتي وأخواتي؟.

تذكر كم نادوه واشتاقوا إليه..لكنه كان في كل مرة يغض الطرف عنهم ولايكلمهم..وعندما يحتاج إليهم بشدة يتذكرهم فيرسل سلاماته حتى صمتت الأصوات، وغاب الأب والأم، إلا من تحيات عابرة كل حين..

-أنت تفهم الحياة جيدا على مايبدو، لاتحتاج إلى نصائح جربها بنفسك...أعانك الله على نفسك.
لم يعد يستمع لأحد، ولم تعد تهمه النصائح التي لاتختصر وتتفهم عالم الغربة القاسي، وذلك لأنهم في كل مرة يزمجرون وتعلو أصواتهم:
-غبي..لايفيد من تجارب جاهزة..جرب بنفسك.. ابحث عن عمل بنفسك ...

قد باح بما يعتلج في صدره لأخته الصغرى كثيرا:

-لايدركون كم يؤذونني بمقارناتهم بين إخوتي...لايدركون كم أشعر بالضآلة أمام نجاحاتهم، لكنني مختلف عنهم، يجب أن يفهموا ذلك جيدا، لاأتقن المجاملة،لاأتقنها أبدا ولاأريد، لايعرفون أن عمي الطبيب يعجبني جدا، فهو فعال وكريم من غير كلمات.. من غير مجاملات، من غير مماحكات، بل الفعل العملي هو الأهم دوما في هذه الحياة من الكلمات التي تبقى في مكانها أحياناً، من قال أنني جاف العواطف؟، لاتصدقوه أبدا ربما لاأتقن مواضيع الإنشاء الأدبي، والجمل المنمقة....لم أستطع...فشلت تماما، ورغم هذا آه لو أدركوا جيدا كم اشتقت إليهم..لكن أختي الصغيرة همست لي مسربة سرا قديما آلمني:

-اتركوه وحده ليفهم الحياة جيدا، لاترسلوا له نقودا..لاتتعاطفوا معه أبدا..دعوه وشأنه يعارك الحياة جيدا ويدرك أن الله حق...يكفي دلالا.لقد حان الفطام....الآن تتوضح نوعية التربية والجذور...من خلال سلوكه بعيدا عن أهله.

-ليتهم يدركوا، أنني كنت نخلة صادقة ضد عواصف الأخلاق المتدنية، والنماذج الاتكالية، والألسنة الطويلة الباهتة الفكر...إنهم لايرون كل هذا، وأنى لهم ذلك؟.إنهم لايرون سوى العيوب لأنني لست مثل إخوتي، عيناه تدمعان بشدة....حاول من جديد   لكن......ماهذا؟ هل كنت أحلم مثلا؟ تلمس جسده، أمسك بشعره فشده، وهو يتساقط بغزارة، من تلقاء نسيانه لأقراص الحديد وفيتامين دال، الذي كان يفتقده مذ خروجه، حيث حثه أهله على معرفة وضعه الصحي قبل المغادرة وترك الوطن....وينسى...تذكر كيف رعى جده بغياب أهلوه ..قلم أظافره..نظف له جسده...أطعمه ..حدثه بكل مايحب...قبّله من قلبه فقد كان يعشق قصصه التي لاتحوي على عظة وحكم، بقدر نتائج عمل أبطالها...كان يحبه فعلا....فجأة أضاء الكون.. صرخ من الفرحة... ورأى كل شيء..بلا مقدمات.

قالت له أخته مسربة ماسمعته من أخيها الكبير:

-إنه يرفض كل مساعدة، وبعد كل تلك الفترة التي مضت في الغربة وحده، لم يجد مخرجا من صدمة الغربة، يكفي حيرة...وغيابه عن الساحة الاجتماعية، إنما هو إنكار للواقع الذي يعيشه، هذا يعني أنه اختار الطريق الأصعب ليقوم بعمل إيجابي، أو يجد على الأقل عملا مشرفا يكسب منه رزقا، بدل إرسال والديه للمال، بلا حمد منه ولاشكرٍ، ولارد لين يغطي على تقاعسه عن الحركة الذي طال...وليعلم أن أمي وأبي هما عيناه الاثنتان...هذا نكران[5] للجميل مهما كان في مشوار الحياة من غصات.

لقد تذكر الآن فقط كلمة قالها له جده يوما، عندما كان يهجع في غرفته وحده وقتا طويلا دون أن يخرج للإفطار مع العائلة إلا دفعا وإلحاحا..كان يعرف أن جده يفهمه جيداجدا..إنه لم يجد بعد مكانه الملائم في المجتمع..
-أبواك هما عيناك الاثنتان..فلاتفرط بهما أبدا، هذا عيني وهذا عيني.. ادهن لسانك بالعسل عندما تكلمهما..ليس كذباً هذا، بل فتح طريق معبدة للحوار...

وصلته رسالة من أخته الصغيرة، من خلال الهاتف النقال بعد وقت طويل:
-البقاء لله والداك قضيا في حادث سيارة أليم.لاأدري إن كان لديك نقودا لتأتي وتراهما قبل أن نواريهم الثرى..

كانت تبكي كثيرا، فالرسالة الصوتية تعبر أكثر من الحروف الصماء...لم تلمني..ولم تؤنبني..لم تضف أكثر من العبارات المهمة حينها....أغلقت عيناه من جديد..فسقط على الأرض مغشيا عليه..

---

[5] موضوع خاص ونموذج خاص :
http://omferas.com/vb/t64873/

16-جسر الوصول الأخضر

مازلت أهذب له ذقنه، فهو لم يعد قادرا على النهوض، نعم ..لم يعد قادرا على إعالتنا بعد الآن، فقد وقع من على البناء وهو يعمل في الإسمنت والحجارة، فانكسر ظهرُه، وانكسرت حياتي معه..وفشلت كل المحاولات لعلاجه، وانتهت معها كل المدخرات التي خبأتهُا للزمن الأسود، بل كان أكثر حلكة من السواد ذاتِه، كانت لحظة فاصلة في حياتي..لايشعر بألمها إلا من ذاقها. فهو مازال شابا في الثلاثينيات من عمره، وفي قمة العطاء...بكيت حتى جفت الدموع.و يعيبون عليّ أنني أنجبت منه وهو على هذه الحال؟، مالهم ومالي؟ هذا شأني لاشأنهم، الثرثرة عَيبُ مجتمع عاطل عن العمل، فالحياة تستمر بكل أحوالها...لكن السؤال الأهم الآن والذي يجب أن نسأله بقوة الضمير الحي والشفقة الكبيرة على أطفالٍ صغار جدا:

-كيف سنأكل لقمتنَا بعد ماحصل؟.

أخرجت كل مالدي من أعمال نسوية مخبأة قديمة، أتذكر فيها ماكنت أحسنه من هوايات، إنها أمي..الأم ليست مدرسة بل عالم كامل من الفعاليات والعلم والفهم...مالهم ومالي.؟ نعم مالهم ومالي؟...هل يرضيهم أن أشتهي الرجال؟، من هذا الذي يثرثر ولايفعل؟ يعيب ولا يُرقع؟ ينظر للقذى في عين الناس ولايرى قذى عينه؟.أين كانوا عندما كنت أمر بذاك البناء الذي كنت يوما ما أعمل في منازله، أنظفها قبل أن أتزوج به وأغطي طلاقي القديم العقيم، بعد أن توفي لي زوجا يكبرني بعشرين سنة؟.ومازلت أحمل رقم ثلاثين! ومازلت قادرة على العمل..فليصمتوا..لاأستطيع الوقوف أمام المرآة الآن ، فأنا أدرك أنه تزوجني ، شهامة وقرابة وأعرف جيدا أنني لاأحمل من الجمال شيئا، لكنني أحب نفسي كثيرا، هذا هو الواقع الذي يقويني ويجعلني أقوم بما يقوم به الرجال رغما عني، ولأجل أسرتي، أحب أن أكون شيئا مهما في هذه الحياة لذا سأصم أذنيّ وأبحث عن طفل يملأ علي حياتي من جديد.أضحك أحيانا عندما أكتب على دفتر صغير يخصني وحدي أكتب مافي نفسي من تعب في السعي لجلب لقمة العيش فأخفق، وأدري أنه كراس مليئ

بالأخطاء، أمحو وأكتب أمحو وأكتب، التي أخجل أن أريها لأحد، ولكن سيكون أفضل يوماما، أنا على يقين من ذلك، مازلت أدق الباب عليها كي تعطيني مهام أكسب منها نقودا، يرتقها بعض زاد تعطيني إياه، تلك النبيلة.

-أنا جائعة، والله جائعة...أرى أولادي يتناولون الطعام فأسعد، ولكن عندما ينفذ الزاد من المنزل...أنظر إليه. أنظر إلى حالي، مالهذا تزوجت..أبكي بعيدا عنه، خاصة عندما يشعر بأنه معطل عاجز، فيصرخ مناديا بشراسة الجوع الذي لايؤمن أبدا..فأجلب ماتبقى، والجوع يطحنني...ما توقعت يوما أن أصير رجلا وامرأة بنفس الوقت..أنام وظهري المتعبَ يئن ويصرخ، أسكته بعدة أقراص من المهدئ التي وصفتها لي الدكتورة صفية القاطنة في حينا القريب، ولكن...أين كنت يا زوجي..عندما كنت أشتهي الرجال في الطريق؟، أين كنت عندما كنت تهملني فتسهر مع أصدقاءك مساء..ودخانك أهم من اللقمة؟...لاأستطيع أن أكونك الآن أبدا ...لقد كنت حينهامتعبة ووحيدة..ليتك تفهم كم كنت أبكي في الطريق، وأنا أحاول كسب أي مال بطريقتي الخاصة،كم تمنيت أن تكفيني يوما...ألستَ رجلا؟.لم تعد الكلمات تكفي لتمتص غضبي ويأسي..مزقت الدفتر، نعم مزقته..فالكلمات لاتباع في السوق البائرة اليوم...ولاتفيد إلا بثرثرة يقال لها كتب!!...كنت شاهدت أكوامها في منزل، باعه ورثته وباعوا الكتب بأرخص الأسعار، العلم فعل قبل أن يسطرَعلى الورق...وإلا فسيبقى ورقا على ورق...أي علم يودي للفقر ليس بعلم...

-الجواد بالحرف يحتاج قوتا يزدرده كي يستمر..

هكذا كان الناس يتبادلون الأحاديث حولها..وتلك الغرفة المستأجرة التي أعيش فيها، تشبه إلى حد كبير قن الدجاج، حيث كنت أرتبها وأنظفها لأبو نظمي، لكنه بدأ يقوم بحركات حيوانية جعلتني أعدل عن العمل عنده لأفيد ببعض قروش من عمل آخر، زوجته من أجمل الجميلات، فماذا كان يرى فيّ؟.فأنا بالكاد تزوجت ومازالت بنت معلمتني الجميلة تنتظر عريسا فماوصل، الدنيا مقادير، هل هي شروط مدينة تترفع على بعضها؟ أم هو صوت النقود الذي يصرخ في آذاننا حتى الصمم؟.أم هو الفراغ والصفاقة؟. بكل الأحوال..مازلت أحتفظ بعبارتين كتبتهم لي امرأة عملت عندها يوماما ونظفت لها منزلها ، كانت تقرأ كثيرا حتى تعجبت من إدمانها ومواظبتها!، ألا تمل السكون في منزلها بعدما رحل الصغار إلى بلاد الغربة؟ أما أنا فلا...قالت لي احفظيها جيدا واجعليها واقعا تغنمي.. شرحتها لي بقدر الإمكان وفهمتها حسب مقدرتي كانت عبارتان:

-الهزيمة للشجعان فقط، الجبناء لايخوضون المعارك.

-أنت مكلف بالسير نحو هدفك، لا بالوصول إليه.
ذهبت لأم حياة، تلك الأرملة الذكية في حينا، التي خرجت من محنة شهادة زوجها أكثر قوة، وأكثر عزيمة وأنا أحب النساء القويات، خرجت لحياتها الجديدة مع وحيدتها الصغيرة، لاتعرف سوى مهنة الخياطة وتحاول جعل ابنتها من المثقفات المرموقات، فهي دوما تقرأّ..قلت لها:
-هل تعلمينني الخياطة؟
-أين أنت؟، كنت بحاجة لواحدة مثلك، مجدة وصبورة، فهل تقبلين؟.
نظرت ابنتها إلي من بعيد قائلة:
-وسوف أعلمك كل ماتعلمته..لأنك تستحقين.

7-4-2020

17-الحب على طريقتي..

منذ قليل أنهى رسالته الأخيرة الموجهة لأمه، بات على يقين تماما، أن نقاط الالتقاء الفكرية بينه وبينها، لم تعد موجودةً أبدا، مازال يحاول تلطيف الجو ببعض جمل متناثرة مابينها من رباط، وقد تراجعت مهاراته في إقناعها، لقد باتت تدري أن ذوقه في الحياة بات مختلفا جدا عن ذوقها، وغريبا عنها بآن،لقد أخفقت في المحافظة على بقاياها فيه....نعم منتهى الإخفاق.

هي رسالته الأخيرة التي تجزم بالدليل حبه الأبدي لها، ورغبته في التحرر من وصايتها التربوية.....

-والدتي العزيزة، لقد نجحتِ في التخطيط لإنجاب، طبيبين ومهندسين، ولكن من الصعب جدا، أن

تربين نسخة مطابقة لك البتة...فأنت لست كذلك..ليس ذنبي أنك نسيت نفسك طوال تلك السنوات، ولم توفِّقي بين رغباتك الدفينة، وبين تربيتنا، لكن كوني على يقين تماما، أنك قدمتِ رسالتك بتفوق كبير، تلك الاستقلالية والاعتماد على النفس التي أراحتك من عبء كبير، هانحن بتنا قادرين فعلياعلى الحياة باستقلالية واضحة، باستقلالية مرّة. جذورنا معك مازالت راسخة، فماذا تريدين أكثرمن هذا؟.قدر الفراخ أن تثب لتخرج خارج العش..نحبك ونجلك، لكن رغباتنا في الحياة تبقى مختلفة ومغاية، حديثة وملونة بألوان العصر الخرندعية، هي لزوم اختلاف الظروف المُعاشة سنختار زوجاتِنا بإنفسنا، ونعرف على المذهب المالكي أن تربية الكلاب مشروعة، لكنها ليست حجة أبدا، يمكننا طرد نزواتنا بعد التجريب.أمي... دعينا نخوض الحياة بقوة، ونكون جديرين بها فجذورنا معك قوية جدا اطمئني، حتى لو ابتعدنا، كوني بخير.فالبومة نذير شؤم في بلادنا، لكنها بشير تفاؤل هناك في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، بومتي من النوع القزم، إذن لاخوف منها ورغم هذا أعتبرها نزوة مؤقتة كذلك، وسوف تزول قريبا ، هي تفريغ عواطف فقط لاغير،فالبلاد هنا مادية حتى النخاع، مرة في حلاوتها مزعجة تعبث بنبضات القلب، . وبرغم العسل المتناثر في الزوايا.فقد آن الأوان،كي نُحبُك على طريقتنا؟ فأعطنا الفرصة ولن تندمي.

وللعلم..نحن لن نبيع منزل والدنا، ولن نضعك في دار العجزة حاليا، هذا أمر فظيع جداً،لايمكن أن يحدث اليتة، ستبقين مكرمة جليلة.ولكن دعينا نرى الحياة على حقيقتها بلا قناع، و بلا تجميل ولامساحيق حكائية ولاتمويه ..هي وحش اسطوري غريب، سنروض ما نستطيع ترويضه لمصلحتنا. سنكون عند حسن ظنك .هي بلاد بعيدة، لا لن نقطع الخيط السري الخفي الذي مازال عالقا وواصلابيننا، أطلقي فراخك، أطلقيها رجاء ياأمي ، وأطيلي خيطك المربوط فينا، فنحن بخير اطمئني. قد فات وقت التربية ومضى، ولم تقصري، أما الآن فقد أتى زمن القطاف...فاسترخِ وترقبي منا الأخبار الطيبة.

****

يزداد الشوق كلما كتبت لك مرارا، الشوق لأطباقك االساحرة، وسأحاول من جديد دعوتك إلينا ليتك تقبلين، فمازلت أتذكر تماما كيف ملأتِ الثلاجة في منزلنا هنا، مما لذ وطاب قبل عودتك للوطن...كنت دعوتُ أصدقائي وكانت وليمة رائعة حقا، كم كنتش مميزة، وبصمة وطنية تدعو للفخر.

بكل كلمة ورأفة وحنان، حاليا لاأفكر في الزواج فلدي مشاريع كبيرة، ربما في الخامسة والثلاثين أو الأربعين يصبح الأمر واقعا لافرار منه...

أدري..لن يعجبك تأخري في الزواج، نعم أدري ذلك، لكن سامحيني.. هذا ماينسابني تماما، سوف أبحث عن زوجة تتحمل معي أعباء الحياة ...وليست خارجة من حضن والداها بملعقة خزفية مزخرفة في فمها رغم فقرها.ستهطل دموعك مدرارا مما كتبت،نعم وأنت تقرئين رسالتي الصريحة، أدري ذلك جيدا شعورك، فسامحي رؤياي لمستقبلي..سوف لن تندمي أبدا على تربيتنا.

دموعك ستحرق وجنتي قبلك ياأمي... وصلني حرها، أنا متألم لبعدك صدقيني، لكن المستقبل يناديني يصرخ في أذني.. هولايبنى بالعواطف أبدا. بل بمنطق النجاح، الذي أومن به جدا.أنت ربحت أبناء بارين بك ومخلصين...وهذا منتهى السعادة كما أرى.أمي العزيزة:

لاوجود للمثالية التي في رأسك الطيب ، ارفعي النظارة لتري جيدا أقزام هذا الزمان، فالرحمة عندما تغيب، هو دليل غياب الوجدان والعواطف البكرمن حولنا، وعندما يغيب المنطق، نؤمن تماما بغياب العقل الراجح، لكن عندما يغيب الضمير، فسوف يغيبان معا.....

اطمئني..لم تؤثر بنا رسائل هوليود، ومازلنا نكتب أسماءنا بالعربية على مواقع التواصل ، ولم نصبح كقصة الجَدي الذي ذهب إلى الغابة لينمو له ذَنَبُ ذئب، فعاد حتى بدون قرنين!!

****

ومازال ينتظر ردا يطمئنه ويريح صدره المليئ بالمتاعب..رسائل تذهب وبلا رد...زمجر غاضبا وخارجا عن عالمه المصنوع:

-مال هذا الهاتف لايصمت؟؟؟، لقد قطع حبال الأفكار، وعلقت في الهواء لاأنا هبطت ولا ارتفعت وماذا يعني أخي؟ سأبقى الكبير هنا، ذو الثقل الأول، والرأي السديد والخبرة الأعمق، كلهم سيرجعون لخبرتي الهامة في الحياة، فلايحاولون تجاوزي وإلا...خاصة أنني أنشئ الآن شركتي الجديدة، فمصالحهم معلقة بي جميعا أنا الأمل..

أموال أبي المرحوم في الأمانة، لن أظلمهم أبدا، لكنني كنت الأذكى فعلا ، فقد استفدت مماأودع باسمي مؤقتا لظروف بلاد تتقهقر وتتماوت، واستثمرت في بلاد الغربة بفضل هذا الحساب الكبير.سوف أخبرهم قريبا ..بما قررت..هف..لن أرد حتى أنتهي من كتابة هذا الرسالة العظيمة ذات الرقم مئة، قرأ رسالتها القديمة التي لم تتكرر عدة مرات فما فهمها جيدا:

-المحبة ليست طبقا من الشوكلاتة، أضعه بقربي، لأقدم منه حبات لمن يزورني، المحبة أعمق من هذا بكثير، هي إدراك مفاتيح الآخر، ومعرفة سر عتبة الوصول لدفعه للأمام، بل لبلوغ عمق المحبة الحقة، أن تضع في عمق غرفته، جوهرتك الثمينة بثقة، يراها كلما دخل محرابك المقدس، ويطمئن أن الأمور بخير. تضع في مغرفة الطعام بعضا منك.اطمئني أمي:

لم يفت الوقت للعطاء، فابحثي في ثنايا روحك عنا وعنك، ستجدين الباب مفتوحا على مصراعيه في دروب أخرى جديدة، أدخليها بقوة الطموح الحيّ،أخرجي طاقتك من مخبئها واكتشفي ذاتك من جديد...لا لم تهرمي..فأنت متجددة معنا دوما، تعيشينا لحظة بلحظة. أدري أنك تقرئين رسائلي بصمت.

ردي على رسائلي يأمي، رجاء حارا، كلمة محبة واحدة تريح عقليَ المتعب. والله نحبك كثيرا.أرجوكِ ردي عليّ، فهاتفك لايعمل على مايبدو..اتصل به أخوه الأصغر، ومرة أخرى بإلحاح وقد كان كالعادة غارق في التنميق والمراجعة والتصحيح في قطعته

الحديدية التي اسمها حاسب... ولرسالة ستضيع في دهاليز ألكترونات البريد الحديث، بلا رد قائلا :

-والدتك سافرت كما وصلني من جارتها منذ فترة، ولم تفصح إلى أين وجهتها ولماذا فعلت ذلك وماذا حصل بالضبط؟؟؟؟...ولم أعد أدري هل وجدت عملا جديدا، أم زوجا جديدا؟. لقد فقدناها تماما....

-حقق مع جارتها...

-حتى الجارة اختفت...

ارتفعت حرارة قلبه، كل شيء غدا في عينيه هلاما، وبدأ يشعر أنه أوشك أن يتبخر!!.هل أهملها بسبب السفر؟ هل افتقدتْ لحضور والدي الراحل فلم تجد حولها أحدا؟ ولم نعوضها؟هي من شجعتنا!!.قد دعوناها لتأتي إلينا لتقضي أوقاتها كلها معنا..لم أعد أفهمها أبدا...لماذا لم تصارحنا بما في نفسها؟ هل انقطع الحبل السري؟ يا الله...السفر مر علقم ولكن هذه هي ظروفنا التي أجبرتنا على ذلك..

وردت الرسالة الأخيرة منها:

-أنا بخير...

قالت أختي:

-نعم هي بخير...لكنها بحاجة إليكم حولها...في مكانها في الوطن...

2020-10-21م

18- سيجارة

من الصعب جدا أن تشعر بسعادة و أنت تسجن مع من تكره، أوتجبر على تقبل من يرفضك في مكان واحد، أوترغم على دخول منزل من طردك منه يوما...أو تجد نفسك في ثلاجة فيقفل عليك بابها ولاتستطيع خروجا!!! مثلا طبعا، أو تنام على وسادة حديدية مليئة بالمال وأنت جائع تعيش في صحراء!....وحتى أن تضطر لتعتذر ممن جرحته وخدشت كرامته يوما وآذيته!..

هذا هو شعوري بالذات عندما أصبت بحساسية صدرية من جراء كوني مدخن سلبي أملك حياء المواجهة ممن يضر صحتي.. كيف صبرت وقبلت أن أكون هذا المريض السلبي فعلا؟...وقد همستْ ابنتي في أذني يوما ما.. ألا أجامل في الأمور التي تمس الصحة أبدا، فأطلب من كل من يدخن سيجارته في أي مكان، وقريبا مني بحكم المكان وظروفه تركها لأن هذا يضرني، فإن انصاع لطلبي كان منطقيا، وإلا فعلي الابتعاد، فأنا أشعر الآن بأني سأدخل متاهات صحية جراء ذلك بخجلي وترددي، فأكدتْ وهي المجتهدة في مجال أعمال الخير، أن أطلب منه بلهجة الواثق الابتعاد أو إطفاء سيجارته لطفا، وحصل .. عدة مرات ووجدت الأمر أكثر من ضروري بل مهما جدا في تفعليه، يجب علينا ألا نفسح المجال لغيرنا أن يدخل الخط الأحمر خاصتنا...لكن ردة الفعل كانت تتراوح كالعادة، مابين عدم التجاوب والتجاوب الإيجابي، والتردد طبعا، أو الابتعاد بامتعاض، وهذا طبع البشر على تنوع سلوكهم، لكن مايحزن أكثر ويصيب بالخيبة أكثر.. هؤلاء الشباب وصغار السن، الذين تلمس أدبهم ورقيهم، وتشعر تجاههم بواجب التنبيه ولفت النظر، ومأأقلهم ، لكن نفسك تأبى إلا أن تقدم شيئا لهم مهما كان بسيطا، وتكون قد فعلت مايمكن فعله.

كنت أشعر بدخان لفائفهم تغشى صدري،تحاصرني، تسجنني في دخانها اللافح ذي الرائحة النفاذة، تؤرقني وتجعلني أتخيل كيف سيكونون غدا؟ ماذا عن صحتهم التي تتسرب رويدا رويدا للفراغ الآثم!؟، خاصة من حيث التعلق وعدم المقدرة على تركها بسهولة عندما يتقدمون بالعمر ؟، إلا أن يدخلوا دوامة المرض فعلا...فيستمروا أو يقلعوا، خطوة شجاعة لايقدم عليها إلا ذو إرادة حديدية، حديث كهذا كان يدور في رأسي دوما طالما كان في الوقت متسعٌ من التفكير في صحة يمكن استردادها قبل فوات الأوان، فقد استطال الوقت عندي، بسبب سفر الأولاد وابتعادهم عن مرمى حضورهم الجميل قربي،

وبات الأمر متاحا لإعادة النظر فيما حولي وفي العلاقات الاجتماعية القديمة والبائتة التي نامت ومضت بلا استقرار تفاهمي، حيث بقي لكل طبعه الفريد يدور حوله ولايبارحه للأفضل، فيصل المرء لمرحلة الانتقاء الحتمي، ويرشد علاقاته. المهم منها فقط والإيجابي برأيه، وبقيت الذكريات تحيك نسيجها العنكبوتي على الحاضر صارخة بقوة:

-لايمكن لشيء أن ينسى، حتى سوء التفاهم، إنه يحفر في النفس أخاديدا عميقة..

أشحت عن خاطري أحاديث نفس لاتنتهي أبدا، كاجترار وقائع ماضٍ لن يعود أبدا...

خرجت لأجلب بعض حاجيات للمنزل، رغم أن الاستهلاك قد تراجع وبات الطعام يسبّح ربه في الثلاجة، مناديا:

- هل من متناول لهذا الطعام اللذيذ اليتيم؟.

أردد في ذاكرتي: جبن وخبز طازج من صنع يديّ من ألذ الطعام.

رأيته كالعادة على رأس عمل ليس له، كان يقبع وراء نظاراته الأنيقة، وشاربه الأسود حالك السواد، وشعره الممشط بعناية فائقة، حتى لتخاله وجد هنا خطأ، يغرق في تهذيب شديد،وحساب لكل كلمة يقولها، صامت إلا من المجاملات المهمة، عند أداء عمله بنشاط وحيوية، لكن أمرا واحدا كان يحزنني عند رؤيته، لأطلب منه حاجياتي تلك، هذه السيجارة التي لاتفارق فمه أبداً لكأنها رضّاعة تدر له الحليب وتمنحه قوة وحنانا دائما!.

مافكرت يوما بتنبيهه ، ربما ترددا أو عدم دخول تفاصيل حديث لاطائل منها أو حياة إنسان لاتعنيني بشيء.. ذلك لأنني أتمتع بجدية فائقة، قد تمنعني من التحدث بأطراف الحديث الذي لالزوم له.لكنني لاأدري كيف استجمعت شجاعتي وتذكرت عبارات ابنتي التي كنت يوماما قدوتها فصارت مستشارتي الرائعة.. فقلت:

-خسارة أن تودي بصحتك، بسبب سيجارة، وأنت الشاب القوي النشيط..الله يعطيك الصحة والتوفيق والنجاح دوما...تستأهل كل الخير، يبدو أنك من عائلة محترمة جدا.

نظر إلي نظرة ذات معنى..نظرة المتأمل الذي يملك من الحديث الكثير لكنه لايريد الإفصاح عنه..فتوقف عن تعبئة الجوز المطلوب في العبوة، صمت طويلا وتأمل السماء ، وكأن أحدا ما لم يوجه له دعاءً من القلب كهذا..دمعت عيناه رمى عقب السيجارة على الأرض سحقها بحذائه...وقال:

-متعك الله بصحتك وأولادك، بالله عليك زيديني دعاء..كم أنا بحاجة إليه، فربما عدت إلى جامعتي يوما ما، ورزقني الله رزقا حلالا كافيا، لأعيل به جدي وجدتي وأمي وأبي.

الآن..يملأ الكيس البلاستيكي جوزا، وقد عاد لوجهه لونه الوردي وصحته ونشاطه ، وأقلع فعلاعن التدخين، وسط تعجبي وسروري الكبيرين، وعندما رآني ابتسم وقال من جديد:

- متعك الله بصحتك وأولادك، بالله عليك زيديني دعاء... قد عدت لدراستي والحمد لله..

كنت أسير على عجلات كرسيي المتحرك الذي أقلني حديثا..قلت له حينها عبارة كنت نسيتها:

-أمين

2020-1-14

19-عندما تصبح الوِحدة وطنا!

ناديتها ليس إلا لأنني أريد أن أتكلم مع البشر..مللت الواقع الافتراضي الوهم..والمقربين الغائبين..وأنترنيت الأشياء الكارثة...كل شيء يتحرك افتراضيا حتى الملل..تساعدني وهي تتأفف ضمنا و تتكلم بلا توقف..حتى لتكاد تكلم نفسها وتشكو الجدران..وتثرثر قائلة دون انتظار رد:

-حتى وسائل المواصلات تنكرت لنا زحمة وانتظارا ودفعا وقلة أدب ووو

-خيرا خيرا

-حتى الخبز نتاج بلادنا صرنا نقف على باب الفران من منتصف الليل...ونحن ندري أنه يتسرب بعيدا عنا بطريقة ما..

-خذي من ثلاجتي حاجتك..

-ابنتي تستميحك عذرا ، اشتاقت للقهوة.

-عندي منها والحمد لله لاعليك تفضلي.

رأيتها تتلصص على الناس من النافذة تاركة الماء تسيل من الصنبور بلا اكتراث... - أغلقتُ الصنبور فتنبهت..

-ماذاتفعلين؟ أين أنت؟

-لاعليك مدام كل شيء تحت السيطرة

-لو تكرر هذا مرة أخرى اعتبري عملك انتهى من هنا

وجدت في محفظتها علبة سجائر

-ماهذا؟

-تنفيخ

-وتشكين الفقر؟

-مدام تحسنت كثيرا..لو تعلمين كيف كنت قبل أن أتزوج وأنجب..

-أكملي الآن بلا ثرثرة

اتصلت بي جارتي تشكو نزول المياه لشرفتها..وقد نسيت سؤالها عن حالي..كم تشغلنا الأنا وتحاصرنا..

وعادت حليمة..تثرثر :

-جارتنا صار فيها مثلك..فغيروا لها المفصل..ثم تبين أنه غير مناسب..ثم غيروا لها المفصل..ثم انكسر..ثم..

-من فضلك..أريد سماع قصة مفيدة..

-لايوجد الآن للأسف..

يدعون لك بطول العمر فتسر بذلك وتنسى سؤال نفسك:

هل أنا ممن طال عمره وحسن عمله؟

هل سيطول عمري دون عجز أو كسل أو مرض وحاجة لمن حولي؟

ليست بدعوة ملائمة للطَموح الذي يخشى الحاجة إلى مساعدة والذي تعود الاعتماد على نفسه كالأشجار التي تعاني وقوفا...

لماذا لانموت بكامل عافيتنا؟،ليس ذلك على الله بعزيز فالصحة أمانة أيضا!.هل هو القدر أم الإهمال؟...نعم معظم البشر يمرضون قبل أن يموتوا..وأطلت برأسها الأجعد متسائلة:

-ناديتني؟

-لا

اتصلت بالطبيب قائلة:

-من فضلكم أريد إلغاء موعد العملية..وأنا مسؤولة عن هذا..

نظرت في المرآة..فوجدتني ..قد فقدت ساقي اليسرى ..فهل أخذتها مع كيس الأغراض؟؟، تذكرت قصة الوحش الذي أكل صديقته، وفي كل يوم كان يتناول قطعة منه بعد إفصاحها برغبتها بالاستئناس به...حتى مل من طعمها فلفظها جملة واحدة أشلاء وفتافيت...هل الدنيا هكذا؟.

فتحت باب خزانتي المكسور فوجدتها تسيل دما!!!صرخت في الخزانة متعجبة مما فيها:

-أين أنت؟

فأجابت:

-ألا تذكرين خالتك التي ربت أولاد العائلة اليتيمة كانت تقول:

-إن الرغبة الجامحة في الشفاء..نوع آخر من الشفاء لايعلم سره إلا الله..

نعم الشفاء رغبة وعناية ودعاء..

****

صحت بتململ وتمطط..هي تشعر بألم يتصاعد!، وفتحت عينيها، وقد تحلق حولها أولادها وزوجها وعاد من غاب خارج البلاد بسرعة البرق، وقد عمل الشوق عمله في تفعيل شعور الفد والحاجة إليهم، وهم يقولون بصوت واحد:

-الحمد لله على السلامة...أنت بخير...

نظرت لي بحزن واستفهام ولوم..فقلت لها:

-أنا أختك الكبيرة وتعرف مصلحتك أين تكون.

20-استئصال طموح

دقت الباب..كنت أتوقع مجيئها في أي وقت..لامفاجأة في ذلك، جاءت وفي عينيها غضب دفين ينتظر فرجة للانفجار، وزمجرة مكتومة كبركان يحتاج فتح فوهته للانطلاق...قمت بغلي قهوة الصباح لأسكت ما بداخلي من ثرثرة مملة مكررة أجترها وحدي وأتوقع كل شيء في كل وقت، أفتح لها المجال للتحدث بحرية، فقد قضيت عمري أتقبل الصدق في أي مكان ولو كان على رقبتي، وبعد مقدمات لاطعم لها ولانكهة بادرت القول:

-ابنك سوف يصيبني بالجنون.

- ابني؟، إنه زوجك على كل حال.

-وتربيتك.

رفعت حاجبيّ دهشة من جرأتها..

-! ننتظر الحدث السعيد لنرى تربيتك، أسعدكم الله.

-نعم سوف أربي خيرا منه.

-حسنا ..سننتظر ..سنرى.

-هذا إن عشتم لوقته

كان بإمكاني صفعها على وجهها الوقح، قليلة التربية ، لكن تذكرت أنها تحملته سنة كاملة من الكسل والحيرة وفقدان القرار..أمسكت بيديه ليقوم بعمل ما ذلك الذي تعود أن يقرر أحد عنه، لم يكن تربيتي بل إخوته الذين دللوه حتى الثمالة،سنة من الصبر والتحمل الإيجابي لشخصية سلبية بكل المقاييس،..وهذا التواكل رزق من الله فقد كنا جميعا كعائلة خلية نحل وكل يجتهد بطريقته، فلت منها ذكر واحد آيل للسقوط..لايستمع للنصائح ولا يتعظ من أخطائه، ولايبادر في حياته الاجتماعية. ولايفكر بأبعد من أنفه..

-ماذا تريدين مني الآن؟

-أريد حلا.

-لاحل لدي، أنت اخترته بنفسك وعرضته للعمل مع والدك. وابنتي قامت مقامي في المقدمات، ماكنت موجودة حينها كنت مسافرة..ربما كنت مسافرة في ملكوت نفسي.

-لكنك أكملتِ المراسم

-أعجبك جماله

-كان على خلق وأدب جم. لفت نظري.

-تقولين الحق الآن.

-وماذا بعد.

-لك حرية الحل مادفعتك لشيء ولا نفرتك من شيء.... أنت قائدة المركب على كل حال، وهذا ماواساني..أنك حيكمة ومتعقلة، دوما تسير المركب بحكمة الام ومحبتها قبل الأب... لم أكن أجد نفسي وسطكما وقد تقوقعتما على نفسيكما تثرثران وحدكما، كان ذلك كلما فكرت بزيارتكما في بيتكما الجديد، فانكفأت ابتعد بصمت لمن لايقدر كبار السن.

صمتت ولم تجب..

-..

-..

- بكل الأحوال لاأحب إزعاج أحد ومضايقته، لكن الظروف تحكم...هناك حلقة مفقودة.

-وهي؟

-هو إنسان بلا طموح البتة ولاتوق لعمل جديد ولا تغيير ولاشيء...منفذ جيد إن أعجبه الأمر. لكنه دوما يعاني تذمرا ورفضا لكل شيء وكأنه فيلسوف زمانه..منطقه يخصه وحده وكأنه يرى الحياة بالمقلوب!! السلبيات تظهر له في كل أمر، وبالكاد يجد بعض إيجابيات فكيف سيعيش غدا؟.ما نراه حسنا يراه مرعبا ومانراه مهما ومفيدا يجد فيه مائة على، هو لايريد التحرك ..إنسان غريب جدا.

-ماذا تقصدين؟

-هل قام بعملية استئصال طموح من المخ؟

-هل تسبينني؟أو تشتمين؟.

-آسفة لكنه شيء لايحتمل. بعد محاولات ومحاولات..كل كتب التربية والمنطق والبرمجيات الفكرية الحديثة فشلت في حل مشكلتنا..لايرى سوى نصف الكأس الفارغ ولو رأى الملآن منه لأنتج وأثمر...

-وهل اكتشِتِفه حديثا؟

-بل توقعت أن أحل تلك المشكلة وحدي...

-لك حرية الحل.

-أطلب المساعدة

-حقيقة أتمنى ففكري..

-أتمنى ألا أفقد الأمل..

-أعيديه إلينا إذاً.

-سبق السيف العذل فهناك طفل في الطريق...

-انتهت المقابلة.

خرجت من الباب كما دخلت منه ..وخرجت من نفسي لنفسي أبكي وحدي....كان لدي كلام كثير..لكن لم يكن له محل من الإعراب..فلن أزيد الطين بلة ...وقد سرقنا الزمان..هو خطأ طبيب عندما حجب عنه الأوكسجين فترة عند الولادة..كمن يقوم بعملية في العينين فيفقدهما البصر....لقد نسي أن ينبهني لذلك حينها ولم يريبه صمته فور ولادته..فتأخر حسب مارأيت في النطور الفكري.. مقارنة بابن اختي الذي نجا بالأجوية المناسبة...

عقيدتي الحازمة أنه لايوجد غباء حقيقي مستحكم في العالم.. بل استغباء أو إهمال أو خطا تشخيصي.

فتحت مجلد الصور وأنا أستعيد مالم يستعاد البتة...كنت أحدث نفسي..حتى السلبية في الحياة تبقى أفضل من التخلف العقلي... السلبية؟، وتبقى قلة الحيلة أفضل من البله والعطلة الدماغية..الذكاء أن نعرف كيف نتعامل مع مجريات الحياة ونفيد من مطباتهاز ونستثمرها لصالحنا ..لقد قررت مساعدتها بطريقتي...

نظرتْ إليّ قبل رحيلها، وكأنها سمعت مابداخلي قائلة:

-كنت أتوقع منك الإيجابية..لأنك كذلك..والده وعد باستثماره في عمله ...والصبلا حتى الفرج بإذن الله فلابد أن يستجيب لنا الله..

ابتسمت وهطلت دمعة حارة جدا من عينيها أحرقت قلبي..قبل قلبها...

لقد كانت البداية الحقيقية...

21- الباب المكسور

كنت بانتظاره ليصلح لي ماخربته من سوء الاستعمال، ومتاعب العصر التي تتوقعك في المنزل اتقاء للأشرار العصريين.. وبتصليح فاشل للخزانة، والتي حان بيعها لكثرة ماشربت من مياه التنظيف، كانت المساعِدة التي تنظف معي المنزل تتحجج بكثرة الأوساخ حولها لترمي من المياه مايزيد عن حاجة الغرفة، فيتشرب الأثاث منه مايصعب تجفيفه بالخرق البالية، لأحاول رغم مرضي وعرجي المؤلم تجفيف ماتبقى منه بضعف ومحاولات ضعيفة، ولكن هيهات أن تفهم مأريد....لقد تأخرت في إصلاحها..وماتأخر عن الإصلاح يؤدي إلى مزيد من التراجع والبلى..فالأعطال تزداد بهاء في عالم الإهمال...كتبت له على الواتس فطال رده ساعات حتى نطق وقال:

-عصرا أكون عندك ياأمي ..لاعليك..رغم أنك قادرة على ذلك ، بهمتك الحديدية..ولكن مراعاة لحالتك الصحية سآتي، فكوني بخير..

-حبيبي أنت أقدر من مائة مصلح على فعل هذا.

-حاضر ..ترقبي خيرا..

تجولت في المنزل..وجمعت أقلاما مكسورة وقصيرة مستهلكة..ورميتها في القمامة، و أنا أنادي روحي:

-حان الآن أن تفتشي عن قبر يحويكِ...فكل ماقمت به تلك السنوات كان من سوء الطالع وسوء اختيار وطموح كاذب..كل مافعلته عبثا هباء هذرا وضياع وقت...لو أنني درست مادة مهمة وعملت في أي مجال..لملأت وقتا يضيع بلا طائل...من يقرأ تلك الأيام؟ كلهم يقرؤون نصوصا سريعة خالية من الدسم..كنت أعد الساعات لكي تمضي..فتبين أنني أعد عمري الذي يمضي بلا رجعة..مهما كتبوا عن السعادة فهي كبصمة الإصبع تتعلق بالماضي بالمستقبل،بالايمان بمعايير النجاح الشخصية،بالنفس الإنسانية اللغز... السعادة الحقيقة ليست على الأرض أبدا.قد تواسيك عبارات تأتيك عبر الأثير من المواقع الفوضوية:

-لا تحزن على مرور عام من العمر ..

فمع العمر نخسر حاسة البصر لصالح قوة البصيرة ..

و مع العمر تتراجع نسبة قوتنا الجسدية لصالح قدراتنا الفكرية ..

مع العمر يختفي اللون الوردي من وجنتينا لتفوح رائحة الورود من كلماتنا ..

مع العمر تتراجع أنانيتنا لصالح اكتساب محبة ذوينا ..

- إذاً مع تقدم العمر نحن لا نخسر ، بل نستبدل الخسائر بأرباح .

إن كان صحيحا ماقالته العبارة لماذا نشعر في أغلب الأوقات أننا نخسر أكثر مما نكسب؟هل أننا نرفض الانصياع للحكمة؟ أم من الصعب الالتزام بعقل غيرنا والاعتراف بحكمته؟..ربما لأنه يحصل لنا مالم يكن في الحسبان فيمتد الوقت ويستطيل، ونكسل أن نستغله ليأس في ذاتنا وعجز عن التجديد.. وكأنك شربت شايا أسودا في منتصف الليل.. فلاأنت تريد العمل ولا دماغك مستعدة للتفكير، لكنك صحوت وقلبك يرفض قبول هذا الصحو على غير ميعاد، فالحكمة تأتيك متأخرة، عندما يضيع القلم..لكنك تبحث عمن يفيد منها فلاتجد سوى خيالات تومئ لها أن تعالي فتأبى الحضور إلا في وقت متأخر أيضا..!بل كالكاتب الذي يبحث عمن يقرأ هذره فلايجد سوى المرآة التي تكرر ماكتب إشارة!!.

-ألو أين أنت لقد مضى أسبوعا بابني..

-عدي يومين...من فضلك..وسامحيني

قمت فجلبت المسامير والجاكوش..أصلحتها إصلاحا مضحكا، وتألمت لأني لم أكن قادرة على القرفصاء ولا السجود ولا حتى الانخفاض لمعاينة الحالة...نمت بعدها وأنا أفكر بريادة السينما ..تحفزني وتستفز بي شيئا ما.جاء اتصاله فجأة وأنا في صالة العرض..تجاهلت الأمر وتابعت...من يأتيك متأخرا فلالزوم لتعطيل أعمالك لأجله..فاحترام المواعيد من احترام الذات.

22-عدتُ.. ولم أعد

جاء الهاتف مفاجئا!!

-هل تتفضلين لمؤسستنا لإلقاء نصا أدبيا ؟ فهو يوم مخصص للقصص القصيرة.

!!!كنت عزمت على اعتزال كل المنابر إلا مما أجد نفسي فيه وأحافظ من خلاله على تجاربي الكتابية من التراجع، أو لأقول هائنذا مازلت أكتب..حكمة مهمة تلك التي تقول:
-كما تضع نفسك يضعك الناس.

فأين سأضع نفسي بعد غياب عشر سنوات؟، هذه المقولة تعني أن تكون حاضرا كما تحب وترضى...وإلا فلا..لم أكن عضوة في أي مؤسسة ..تعودنا في هذه الأزمنة العمل عن بعد، و الذي شربناه عنوة وأدمنا معالجته.. وصرنا في الزمن الكوروني نتخاطب بالصوت والصورة بلا حضور فعلي، صار الأمر أكثر راحة ومدعاة للكسل..لكنه جعلنا نفتقد للقاء الحقيقي الأصل، ربما كان هذا لكثير من المعلمين وكثير من المبدعين، وهذا لم يلغي الواقع عامة، لكنه غيرني...وجعلني أكتب البحث وأتوقف عنده، حتى لاعتقدت أنني لن أكتب القصة بعد اليوم ولاحتى الشعر، لقد أخذني الميل للبحث بعيدا جدا، فالمنطق يتنافر مع الوجدان أحيانا كثيرة، ومايقبله العقل قد لايستسيغه القلب، والعكس صحيح جدا، ويبقى السؤال عن الحنين لما مضى أو فاتنا ولم يعد قريبا منا؟ماسر هذا الإنسان الذي يتذكر مايجب نسيانه مثلا وينسى مالايمكن نسيانه؟.أو حتى على الأقل لتكن الذكرى لنستلهم ونترحم أو نفيد من تجربة سابقة..وعادت لنا سنوات المراهقة الأدبية وعادت بنا مبادؤنا الأصيلة تنادي لالاتذهبي إلى هناك..وامش على رؤوس الأصابع..فهناك عالم كامل من النقد والألفة والعطاء..والحزن أيضا..

ورن الهاتف مرارا هل أوافق؟...يا للتردد..

****

وصلت إلى هناك وانا أجر نفسي ومرضي وكأن الصور القديمة عادت لي.. ..وتذكرت كل شيء..وخشيت أن أشم رائحة الدخان الذي غدا اليوم يسبب لي الحساسية المفرطة، ولم يكن كذلك من قبل..هل كبرنا؟..ربما ..صعدت الدرج وأنا أرى أشباحا تدور

حولي..وأصواتا متداخلة..دخلت بتؤدة.. عندما سمعت صوتا صادرا غير واضح من هناك يلقي نصا ..من الطبيعي جدا ألا يكون واضحا وقد أخذني الزمن إلى هناك..فبت هنا ولست هنا معا..سنوات عشرة غبت عن المكان.. بلد فيها ناس ويموت ناس..

أترانا نموت بلا تواصل فعلي ونعيش من أول مبادرة؟..

عقد كامل بل أكثر من عقد..كانت المكتبة في اتحاد الكتاب الفلسطيني بدمشق قد انتقلت إلى الجدار المقابل..والصور مابقي منها إلا القليل من مؤسسي المكان..وتحركت كذلك لمكان أفضل..والمكان غدا أرحب بكثير..لماذا هذا الشعور؟،،ربما هذه المروحة السقفية جديدة..لقد كان هناك فراغا في المكان ماعرفت ماهو ذاك الشيء الذي ترك المكان ومضى وترك لي شعور الفقد بل البحث .....

رأيتني على تلك المنضدة أنهي قصيدة لاتفكر قلبي الغالي تحجر.. وسط نقد هامس حولي ليهب الأديب عدنان كنفاني يقول:

-لايوجد قلب متحجر بل مكسور أو خائب الأمل..فالعواطف لاتموت ولو حاولنا...ليصيح مرشدا بعد لأي :

-بكل الأحوال لايوجد نصا كاملا، ولكن لابد من أن نعتني بنصنا :لغة وحبكةهذا لجميع من ألقى هذا اليوم.

-كان الشاعر عبد الكريم عبد الرحيم قد ألقى قصيدة عصماء لتوه ..ماخرجتْ من جدران اتحاد الكتاب الفلسطينيين برأيي..سوى للفيس بوك لقد بقيت هناك تحكي قصة مكافح مانسي مسقط رأسه ولا وطنه فخلده في شعره ورواية واحدة يتيمة وصدح يقول بصوته الواضح الرصين:

-شهيد

هل مت ...؟

قد رفع الأذان

وأقبلوا خلف الإمام

بنات أعمامي يمزقن الثياب

وحول نعشي يهدل اليمام

جنازتي هذي إذن!

لكنني

في مقلتي نجمة

وفي فمي كلام

إذا تعبت مرة

أنام في حضن الوطن[6]

قفز أحدهم مهاجما:

-مالكم تذكرون فلسطين في نصوصكم كثيرا أين العرب ؟ بل ماذا عن البلاد العربية الأخرى؟ وهل ستعيدها الكلمات؟ إنها سلبية كذلك.

هبَّ الأديب عدنان كنفاني من جديد مدافعا:

-لتكن تذكرة للجيل الجديد. الذي قد يكون أفضل منا ويستعيد وطنه المسلوب، دورنا التذكير بقضيتنا لاخيار ولامساومة في لك.

اقترب الشاعر مني بتؤدة وهمس في أذني بسرعة حيث انصرف عديد من الحضور:

-لاتسمعي لهمس أحد بعدي..ألقي مابجعبتك واستمعي للنقد سجليه واقفلي راجعة لمنزلك فورا..المجالس دوما فيها الغث والثمين، أنت ابنة عائلة محترمة فافهمي ماذا أقول..

تذكرت كيف كنت أرقب من بعيد نعيه في جامع صلاح الدين في حي ركن الدين بدمشق.. تقديرا وترحما بعد ماعلمت معاناته من ذلك المرض الخطير..تلك الهمسة التي ظلت في أذني طويلا تذكرني بمكانة المرأة الأدبية والأخلاقية الرفيعة، أن تبدعي لايعني أن تصبحي في الضفة الأخرى من العالم.كان المدير العام عبد الرحيم غنيم يلقي بحثه عن أميّة النبي صلى الله عليه وسلم، ووجهة نظره انها أمية اعتبارية وليست حقيقية..يلقي بثقة وقناعة ويبقى ذاك اجتهاده وله الفضل.لكن الأديبة هدى حنا بوجهها البشوش الذي كان يجسد الرقي الفلسطيني بأبهى صوره هنا تجلس قرب المنصة بمكانها الذي لاتغيره وكان يناسبها تماما ويناسب لطفها وكلامها الموزون..وقد أهدت لي مجموعتها القصصية بابتسامة محبة عميقة وهي تقول هامسةأيضا:

-سيكون لك شأن لاتتوقفي عن الكتابة.

أفقت على صوت الأديب جميل حسن..بلفافة تبغه التي لاتنطفئ أبدا..ولكن لماذا غدا يشبه الأديب نور الدين موعد؟ فيقول:

---

[6] من ديوان" مدن تشبهني"

-أقدم لكم الدكتورة ريمه الخاني..لقد كانت تتعثر في البدية ثم انطلقت..

وعيت فجأة على زمن حاضر ووجوه تغيرت...نظرت للجمع الذي لم أكن أعرف منهم أحدا.. كم تدور عجلة الحياة ..فمهما غبت فهي لن تنتظرك ولن تنتظر أحدا... كانوا يشبهون إلى حد كبير من كنت أعرف ولكن بملامح جديدة..وسوف أترك بعض نفسٍ هنا وأمضي مثل من مضى قبلي.. يا لهذه الحياة التي تسجل لنا كل شيء...وماذا بعد؟.دخل على حين غرة زوجي وقد أدهشني الموقف وأدهشني حضوره أيضا و لأول مرة هنا:

-كنت ألحق بك ..لمحتك قريبة فقلت لأعرف أين تذهبين.. مالذي جعلك تقومين من الفراش؟بكل الأحوال قلت نعود معا..لقد أنفقتِ على كتبك وعلى عالم الثقافة لتبني أسما..ولو بنيت مسجدا لكان أفضل لك ..إحذري أن يملأ الأدب حياتك دعيه يملأ جانبا فقط...إنه لايطعم كسرة خبز..رجاء لاتنسي..

نظر إلى الجميع ورمقوه كذلك بنظرات استغراب ..ساد الصمت القاتل على المجلس..ابتلعت كلاما كثيرا وددت قوله..وأدركت أن مالا يمكن قوله شفاها..سوف تتلفظ به السنون.. رحب به مدير الجلسة فرد التحية، قائلا:

-الله يعطيكم العافية.

قفلت راجعة معه وعدلت عن التعريف عن شخصي.. وإلقاء أي مادة ..فقد كنت متعبة فعلا..وقد تركت كتبي هناك..تتحدث بلساني.[7]

****

كنت أعاني استعصاء في ذاكرتي القصصية..أبحث عن قصة فلا يحركني أي موقف..فعلا فالقضايا الأدبية العسيرة باتت معروفة..فكيف نجدد فيها ونعيد القص للظهور بحلة قشيبة؟عندما دخلت ذاك المكان..تراءت لي مصابيح معلقة في سماء المكان وصوت الأذان ..ونفوس بسيطة طيبة وروح معلقة بين هنا وهناك...سنامها في وطن سيعود..جلست أستمع لمن يلقي نصه حينها..وكأنني أسترجع الزمن الجميل لأقول له :

-مازلت هنا فاسمعني جيدا قبل ان أرحل مثلما رحلوا..سألقي عليكم نصا ربما قبل الأخير..كانوا كثيرين وكانوا يستمعون باهتمام.

---

[7] حدث شيء من هذا في تاريخ 22-2-2022م.

فصل بالروايات القصيرة

مقدمة:

عندما تحتزل نصف الكلام لصالح القارئ، فإنك تقدم له العالم مختصرا بحروف مهمة، لتهمس في أذنه عن أسرار الحياة...

كن بالقرب فلدينا الكثير لنتكلم عنه.

المؤلفة

22-بلوى الكتب

(قصة طويلة، أو رواية قصيرة)

د.ريمه عبد الإله الخاني

إهداء

إلى عائلتي ..

زوجي وأولادي الذين صبروا على شغفي بفنون الأدب

مع الشكر الخاص لابني المهندس فراس

الذي أوحى لي بعنوان هذه القصة

له مني كل الحب والرضا

العبث من البداية

لقد طرحنا الأخلاق استخفافا، فانتشر العبث اللاأخلاقي، وانقلبت المفاهيم إلى أن تغلب الباطل على الحق، والكذب على الصدق، وضاع العديد من الناس في صحراء التيه، بعد أن سُحب النور من أعينهم فأصبحوا عمياناً بصراً وبصيرة، فزحف الظلام متغلغلاً إلى حجرة الوعي، فدمرها وقضى عليها.

ترى ..كيف استطاع اللاعبون الاستقواء على الضعفاء، من أمثالي وأمثالك وأمثالها وأمثالهم؟.

فحولهم إلى أناس لاحول ولاقوة؟.

نعم هذا سؤال مهم جدا، ولكن هل نستطيع الإجابة عليه وقد دخلنا مرحلة اللاوعي ورضينا بهذه النتيجة المرة بعد أن أغوتنا الدنيا بألوانها القزحية وشدنا الدرهم والدينار إليه؟!

لقد لعبوها بذكاء، ابتداء من غرس الفساد واللاأخلاقية.

إن الرجوع إلى الأخلاق التي تركناها بمحض إرادتنا صعب وصعبٌ جدا، فأنى لنا الرجوع وقد قطعنا شوطاً كبيرا نحو الهاوية؟؟.

عزيزي القارئ: لابد أنك تعرف الإجابة على هذه الأسئلة الملحة، بل يجب أن تعرفها، ومن خلال المثل "شلة حرير على شوك" تعرف أن مسلكها وعر وطويل إلا أنه حتمي ومصيري، فلنبدأ معاً يداً بيدٍ، نحو الخطوة الأولى والله الموفق.

البداية

كان لوالدة سما ابن خال من أخ غير شقيق و كانت تحبه كثيرا وتفضله على أبناء خالها من الأخ الشقيق لما يتسم به من دماثة في الخلق وهدوء في الطباع ، فهو محب للناس ومستعد دائما لتقديم خدماته لهم بصمت وتواضع ، ومن مزاياه أن كان يعطي تبريرا لأخطائهم تجنبا للشقاق فاكتسب محبة الأهل والأقرباء . في الحقيقة هو رجل نبيل بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وإن لم يكن مرحا كسائر إخوته إلا أنه بتمتع بشخصية جذابة ، فهومحدث لبق يعتمد في حديثه على المنطق والفكر السليم إضافة إلى نبرة صوته الملفتة.

تخرج من كلية العلوم بتفوق وحصل على الشهادة بدرجة امتياز ما خوله ليكون محاضرا مساعدا في الجامعة ثم أصبح أستاذا متمكنا فيها.

لم تكن سما لتراه كثيرا لا في طفولتها ولا في صباها اللهم سوى بالمناسبات العائلية الكبيرة مما جعلها لا تعرف عنه شيئا و لا تهتم لوجوده أصلا فقد كان قليل الكلام ويهرب من النقاش ولا يطيق المجادلة بعكسها تماما ، على أنه يتمتع بنفس الوقت بدقة الملاحظة وسرعة البديهة حيث لا يتردد في إطلاق سهامه لإصابة الهدف لا للإزعاج وإنما مجرد لفت نظر لصالح المستهدف والذي غالبا ما يكون من أقرب المقربين له، أي أنه لا يتمادى أو يتطاول إلى أبعد من ذلك.

سما الصبية الجميلة الذكية التي لم يسبق لها مرة واحدة أن جلست مع جهير وتجاذبا أطراف الحديث لم يخطر ببالها قط ان تفكر فيه كزوج أو تصرح لوالدتها بشيء عن رغبتها في الزواج منه أو من عيره فالكلام بهذا الموضوع مرفوض من الأساس ويعتبر التكلم فيه من قبل الفتاة من العيوب المكروهة أوالمستهجنة .

و على حين غرة حدث ما لم يكن بالحسبان إذ تزوجت الأخت الصغرى سيما قبلها بعام وهذا ما أشعل نار الغيرة في صدرها وأصبحت تحلم بفارس الأحلام كثيرا وتبث شجونها لوالدتها تارة بالتصريح وتارة أخرى بالتلميح ، وقررت في سرها قبول أي عريس يتقدم لخطبتها جتى ولو كان إلى المغترب وكان لها ما تمنت . أما العريس فلم يكن سوى جهير الذي طلب يدها بعد أول لقاء إذ أعجب بحديثها الذي ينم عن ذكاء وقاد بالفطرة. أما سما فقد تقبلته وتقبلت فكرة السفر لأنها راغبة في الزواج ليس إلا وسافرا معا على الفور .

لبثا ردحا من الزمن في المغترب مسرورين يبنيان مستقبلهما يدا بيد واستطاع جهير الحصول على رصيد مالي جيد يغطي تكاليف الحياة في الوطن. أما سما الزوجة النشيطة الذكية المكافحة فقد ساعدت زوجها بتعليم الفتيات بالجوار بما تتقنه من هوايات مفيدة ابتداء من حياكة الصوف والخياطة إلى صناعة الورود بكافة أشكالها إلى أن انشغلت بتربية ولديها . إنها حقا لمفارقة مدهشة أن نجمع المال من خارج البلد لنعيش بداخله حياة كريمة!!

انصرفت سما عن هواياتها جميعا ليحل محلها ينبوع الهواية الأدبية الذي تفجر لديها، وانطلقت تبحث متنقلة بين حقول المعرفة وتقطف من ثمارها ورياحينها، ومن عشقها للأدب غرقت في عالم الكتب وانكفأت على نفسها تراجع كتبها المدرسية من جديد مع أولادها لمتابعة واستكمال مشوار المعرفة التي بدأتها معهم وحصلت على الثانوية العامة مثلهم .

عندما عادا للوطن، بعد حوالي خمسة عشر سنة، كان الإنترنيت قد انتشر وازداد استعماله بين الناس إلى درجة الإدمان لا لانفتاحه فقط على آفاق علمية عديدة ومتنوعة وإنما لسهولة التواصل وغرض التسلية . وكانت سما واحدة من هؤلاء الذين أدمنوه لدرجة أنها أهملت أولادها وباتت تكتب وتنشر من خلاله، لقد نسيت أنها امرأة متزوجة لها اهتماماتها كزوجة وربة منزل وأم حتى أنها غرقت في حوارات مع أدباء بغاية تصحيح ماتكتب، وهذا الهدر في الوقت أثار غضب جهير وبدأ الخلاف كالداء يسري في حياتهما، وكان أول شجاردب بينهما حينما قررت الانتساب إلى إحدى الجامعات الخاصة لدراسة الأدب العربي ما جعله يصب جام غضبه عليها. لقد كان قرارها طعنة له في الصميم فلم يعد يحتمل تصرفاتها

وقال لها:

" اقسم بالله العظيم أن تسجلت واشتريت الكتب فأنا وإياك على فراق ، تحملتك كثيرا من المغترب إلى الوطن . لقد نسيت تماما أنك لا تعيشين وحدك وأنك زوجة وأم وإن كسرت كلامي لا تعودي إلى المنزل".

فلم تعد.

انفصلا دون طلاق وكل ذهب في طريق

كان الفراق هو الحل الأمثل بالنسبة لهما ولأبنائهما.

هل كانت لحظة طيش!

مرت سنون وكبر الأولاد وأصبحوا شبابا ولم يلتقيا.

وفي يوم من الأيام وباللحظة التي جلس فيها وراء مقود سيارته برز شريط حياته أمام عينيه وظهرت سما أمامه وكأنه يرى فيلما سينمائيا ، أتراه حن إليها؟ تساءل:

"هل كانت لحظة طيش حين افترقنا؟

كلا، كلا على الإطلاق فالفراق لا الطلاق هو الحل الأمثل ، لكن الرجوع بعد مرور هذه السنوات يبدو مستحيلا . صحيح إنني ما زلت أحبها، ولكن في العودة رجوع إلى الخلافات من جديد وهذا ما يؤثر بالتأكيد على حياتنا وحياة الأولاد. وإن حصل أن كنا متوافقين ثقافيا ووجدانيا فإننا متنافران سلوكيا.

واستمر يحادث نفسه قائلا:

كلا لم أكن متسرعا ، لقد وصلت معها إلى طريق مسدود ولم ألجأ إلى الطلاق بسبب الأولاد من جهة ولأنني ما زلت أحبها من جهة أخرى، ومع ذلك فإن التباعد بيني وبينها

قد أثرعليهم نفسيا فإبني البكر، الذي بلغ من العمرالآن ثمان وعشرين عاما، يريد الزواج لكنه عندما يرانا في تدافع سلوكي دائم سواء كان بالألفاظ أو النظرات تجده يتراجع ، ففي داخله تخوف كبيريشده ويمنعه من الإقدام على هذه الخطوة المصيرية .

ترى هل يمكن أن يقع في نفس المطب لو اختار إنسانة مثقفة طموحة؟
كلا، ليس بالضرورة ، فمن النساء من تتزوج لتكوين أسرة والاكتفاء بالاهتمام بها حتى ولو كانت مثقفة وطموحة ،ومنهن ما تحب أن تساعد زوجها فتدخل سوق العمل ولو أثر ذلك سلبا على تنشئة الأولاد"

وفجأة انجلت الحقيقة واضحة أمام عينيه واكتشف أن ليس هناك أي سبب أو مبرر للفراق ، وصرخ صرخة مكتومة وهمس خائفا أن يسمعه أحد :

" سما...إنني مازلت أحبك..عودي بالله عليكِ..أريدك لي وحدي..لي أنا فقط...أحلامك لن تغنيك عن عشك الزوجي...الحياة بدونك سراب ووحشة قاتلة"

نطق بهذه الكلمات رغما عنه والأسى يعصر قلبه ثم تنهد تنهيدة المكلوم وأدار المقود بسرعة ليخرج من الشارع الفرعي عندما اصطدمت سيارته بسيارة أخرى، إذ لم يكن يسوق حينئذ بكامل تركيزه ، وعندما نزل للكشف عن الأضرار وقعت عيناه على سيدة يعرفها جيدا وعقدت الدهشة لسانه فهمس :

يا إلهي ، إنها سما ، سما بذاتها، وناداها:

سما!
فحملقت به وقالت:
- أنت جهير!
فأجابها :
- لقد اشتقت إليك كثيراً، ألم تشتاقي إلي؟
- اشتقت إليك بالتأكيد ، أجابت وهي تتلفت حولها وكأنها تخاف أن يراها أحد ، وقال لها :
- هل تناولت الغذاء؟
- لا
- سنذهب إلى مطعم أبو كمال ونتناول المشاوي التي تحبينها
- ما زلت تتذكر؟
- نعم

- وبعدها سنشرب القهوة التي تحبها (سكر زيادة) أرأيت أنني ايضا أتذكر؟ وضحكا.
شعرا بسعادة لا توصف ، سعادة الفقير الذي وجد كنزا كان يحلم به ، وطفق كل منهما يحدق بالآخر غير مصدق لما يرى.
جهير كما هو، ولم يغز الشيب مفرقه إلا من بعض شعيرات بيضاء لكنها لم تسلبه جاذبيته.
أما سما فبقيت محتفظة برشاقتها رغم أنها قاربت الخمسين عاما ، إلا أن وجهها الطفولي يوحي بأنها أصغر سنا.
وقال لها:
- هل تعلمين أنني ناديتك فلبيت النداء ، رب حادث سيارة خير من ميعاد
فابتسمت مسرورة وهمست في سرها " الحب الدفين يطفو على السطح من جديد"

فجأة ظهر رجل غريب وتوجه إلى طاولتهما مبتسما وناداها باسمها:
- دكتورة سما!
- أستاذ رضاس! تفضل شاركنا القهوة ، سأعرفك على زوجي جهير
- تشرفنا
- أستاذ رضاس معيد في الجامعة
- أهلا وسهلا

شرب الأستاذ رضاس القهوة ومضى لحاله.
أما جهير فسألها:
- منذ متى وأنت تعرفينه ؟ لقد ضحكت عيناك عندما رأيته
- أفهم أنك تغار! أنت مخطىء، عيناي لا تلمعان إلا لمحياك وابتسمت.
- لكن ما رأيته غير ذلك ، يبدو أنكما تعرفان بعضكما منذ زمن طويل .
- نعم ، إنه زميل قديم .
- لكنني أشعر أنه صديق مقرب ، منذ متى وهذا العجوز النحيل صديقك ؟ لا تنسي أنك مازلت زوجتي وأنا مازلت على قيد الحياة .
- بمجرد أن التقينا عدنا للمشاكسة والغيرة التي لا معنى لها من جديد.
- ألا تنقلب الصداقة إلى حب؟
- ما معنى هذا الكلام وإلى أين تريد أن تصل ؟ أنا أحبه وهذا الحاضر، (أعلى ما في خيلك اركبه)

ولم يحتمل جوابها فوقف غاضبا وصفعها على خدها على مرأى من عيون الناس
.
وضعت سما يدها على خدها وقد هطلت دموعها مدرارا..

- فعلتها؟ إنك لغبي فعلا والكلام معك عبث.

ثم سحبت شالها الأحمر من على الكرسي، التفت به ونظرت إلبه شزرا.
حاول التأسف والاعتذار عن فعلته فهبت واقفة و هرعت هاربة ، حاول اللحاق بها فاستوقفه النادل بالفاتورة .

وفي المساء طالبته بالطلاق فرفض وكرر اعتذاره، وافترقا من جديد وكان الفراق هذه المرة بسبب الغيرة العمياء والتصرف الأرعن من كليهما.

أثر الفراق على الأولاد

وللمرة الثانية افترق الزوجان وتعكر ماء النفوس وطفت على السطح الآلام والذكريات الحزينة التي لاتريد أن تفارق أصحابها، مما أثار حفيظة الشابين عامر وجاهد فقال عامر لأخيه حول هذه المشكلة العويصة التي باتت تؤرقهم جميعا :

- إن القضية لا تستحق أن تصل إلى مرحلة الهجران، وسواء كان الفراق هجرا أو طلاقا فسيمزق
شمل الأسرة ويؤثر تأثيرا بالغ الخطورة علينا لأنه يقتل الحب ويجرد البيت من الدفء والحنان
الجامع ويزيل الإحساس بالمشاعر ، ثم استرسل متسائلا : لماذا وبعد مضي كل هذه السنوات
ينشأ هذا الخلاف من جديد ؟ فتصرفهما تصرف المراهقين وكأن ما جمعاه من خبرات في هذه
الحياة قد تبخر.

صمم عامر وأخاه جاهد أن يقيما في عيد ميلاد والدتهما احتفالا صغيرا يضم المقربين من العائلتين ولم لا؟ فربما يقومان بعمل محمود يهدئ النفوس ويحل العقد .

كان جاهد يعمل لدى شركة صناعية تجارية خارج القطر ولكنه يزور والديه من وقت لآخر، وكان عامر يستأنس كثيرا بزيارته فكلاها يعيش وحيدا ويشعر بغربة حارقة ، فهو غريب خارج البلد هروبا من المشاكل وعامر غريب في نفس البيت ولا يستطيع أن يهرب منه ، وهو يعاني الأمرين من البقاء فيه بسبب المشاحنات اليومية التي لا تنتهي بين أمه وأبيه، خاصة حينما ينفصلان في نفس المنزل ، كما وإن انشغالهما الدائم بعملهما جعل التباعد بالنسبة لهما سهلا سواء داخلا أو خارجا أما بالنسبة للأولاد فقد كان يؤذيهم
.

كان عامر يسمي فراقهما بالطلاق النفسي أو الطلاق الأسود، وكانت هذه التسمية تضحكه وتثير غضب أخيه فشرح له :

"الطلاق النفسي يا جاهد حالة يعيش فيها الزوجان منفردين عن بعضهما وكل منهما في ركن رغم وجودهما في بيت واحد ، يعيشان معا كالغرباء، ونتيجة لذلك فالحياة الزوجية بينهما تبقى متفسخة أو بالأحرى ميتة باردة وخالية من أية عاطفة سوى عاطفة الغضب وحب الجدال والمشاكسة لأن هذا ما يستطيعان القيام بإثارته خرقا للسكون القاتل

الذي ينشر التعاسة في أرجاء المنزل و يسرق السعادة من الأولاد . في الحقيقة، إن هذا الهجران التوافقي الذي سميته تجاوزا بالطلاق النفسي قد يكون أشد خطرا من الطلاق الفعلي لأن الأمل في الصلح والإصلاح موجود ولكنه غير قابل للتفعيل فهو مرتبط بتنازل كليهما أو أحدهما عما يتمسك به الآخر مقرونا بوجود النية الصادقة للإصلاح والتفاهم لصالح الأولاد وبناء أسرة ناجحة."

فعقب جاهد: لقد فهمت يا أيها الفيلسوف ، قل لي ماذا ستفعل؟

- خبرتك بأنني قد دعوت أقرباءنا عسى أن يحن والداك إلى أيام الوفاق والانسجام والذكريات الحلوة.

- حسنا فعلت ، ومن أضعف الإيمان فإننا سنتناول الطيبات .

وفي هذه اللحظة دخل جهير وقد أحضر معه من أحد المطابخ الشهيرة الأطعمة التي يحبها والداه، وكانت سيراء قد أعدت بمساعدة أمها بعض المقبلات الشهيرة واللذيذة كطبق الحراق إصبعه والتبولة وبرك الجبن الساخن.

- ماذا أحضرت أنت يا بطل هذه الوليمة ؟
- لقد أحضرت قالب جاتوه فاخر وسيعجبك كثيرا شكلا ومذاقا وبالشوكولا كتبت عبارة (عيد سعيد يا أمي).

كان أول من وصل هما الجد والجدة من طرف الوالد .

دخلت الجدة المطبخ على الفور وألقت على سما تحية جميلة وأردفت :

- ما هذه الروائح التي تشق النفس ! تسلم الأيادي..ثم قبلتها وقالت لها " كل عام وأنت بخير ، ينعاد عليكم جميعا بالهناء والسرور، ووضعت هديتها على الطاولة. تناولتها سما وقالت لحماتها:

- الله يسلمك ، وشكرا على الهدية.

- العفو، أنت ابنتي وعزيزة على قلبي

كانت سما في حينها تنهي طبق الحراق إصبعه وتزينه بالكزبرى والثوم وقطع العجين المقمر

حين دخل والدها ولحقت به والدتها وقد أحضرت معها باقة من الزهور الجميلة .

قبلت سما وقالت لها :

" كل عام وأنت وأسرتك بألف خير"

ثم دخلت سما وهي تجفف يديها وبدأت ترتب المائدة مع سيرا ء.

جلسوا جميعا إلى طاولة الصفرة وتناولوا ما لذ وطاب من المأكولات وتجاذبوا الأحاديث الحلوة. وفي المساء انفض المجلس وكانوا جميعا مسرورين.

ذهبت سما إلى غرفتها دون أن تنبس ببنت شفة أو يصدر عنها أي تعليق . لقد قامت بواجبها على أكمل وجه وانتهى الأمر، وبذلك اسنطاعت أن تقطع الطريق على جهير والأولاد فلم يتمكن أي واحد منهم التلفظ بكلمة واحدة .

حتى أن جهير بذاته لم يستطع أن يبارك لها في عيد ميلادها فانصرف هو الآخر إلى غرفته يجر خيبته، وطبيعي أن تكون غاضبة منه، لقد طعنها في كرامتها وصفعها على خدها وكأن شيئا لم يكن.

في الصباح الباكر ذهب جهير إلى عمله وهوممتعض وذهبت هي أيضا إلى عملها وهي مقضبة.

أما الشقيقان فجلسا يتحاوران وانضمت شقيقتهما إلى مجلسهما وبالقهوة زودتهما .

قال جاهد الذي سيغادر البلد في الصباح التالي مخاطبا أخاه:

- شكرا على الوليمة ، وأسفي على فشلها إذ لم تحقق الهدف. آمل في الزيارة القادمة
أن يتصالحا.
- نعم ، يكفي هذا الفراق..لاحول ولاقوة إلا بالله..كلما حاولنا تقريب وجهات النظر فشلنا، قالت سيراء وأضافت:
- سيأتي يوم نرحل فيه عنهما فلا يجدان إلا بعضهما حينئذ سيشعران بالكبر وبحاجة كل منهما إلى التمسك بالآخر ، وعقب جاهد قائلا:
- تنطقين الدرر كالعادة ، يجب على والديك أن يدرسا كلامك هذا جيدا ليفهما مصيرهما في هذه الحياة ويدركا أهمية الأسرة ولحمتها، واسترسلت سيراء:
- لكل مشكلة جذورها فما هي هذه الجذور؟
- لقد تزوجت والدتنا صغيرة السن وأنجبت ثلاثة أولاد وكلما كبرت كانت تشعر بالجهل أمام المتعلمين الأكاديميين وتتمنى لو تغوص في النقاش معهم فقررت أن تتعلم ونفذت ما قررت حتى حصلت على الشهادة الثانوية، لكنها لم تكتف وأرادت المتابعة ولو على حساب أسرتها مما أزعج والدي كثيرا فحاول ثنيها عن الموضوع ولم يفلح ، وكلما نجحت ازدادت قوة وإيمانا بقدراتها حتى أخذت درجة الدكتوراه واستساغت العمل خارج المنزل فاستهواها لدرجة أنها نسيت واجباتها تجاه زوجها

والاهتمام بأسرتها، أما أبي فازداد غيظا وبدأت المشاكل تترى ووقع الفراق لا الطلاق ولمدة طويلة من الزمن.
فعقبت سيراء قائلة:

- الآن عرفت لماذا كانت تصر على مراقبة دراستنا وتملأ مكتباتنا بالمراجع القيمة. الحمد لله لأننا مازلنا نحب الكتب ونحب رائحتها فلوالدينا أفضال كثيرة علينا ورغم جميع الخلافات بينهما ورغم افتراقهما الطويل استطاعا تربيتنا وتعليمنا لوجود قواسم مشتركة بينهما ساعدت على ذلك، إلا أنها حرمتنا جميعا من السعادة التي يرنوأليها كل فرد في هذه الأسرة .
- في الوهلة الأولى تحسب أن المشكلة صغيرة وقابلة للحل ولا يمكن أن تسبب مشاكل لكن الحقيقة تشير إلى غير ذلك. العند صخرة من الحجر الصلد ترتطم على سطحه جميع المحاولات فتنكسر، تابع جاهد ومن ثم قال عامر :
- عندما كانا يفترقان متباعدين كل في منزل كنت أضطرإلى أن أعقد اتفاقا

مع والدي الحبيب لكي يتابع أمورنا من بعيد فيدعمنا ماديا من غير علم الوالدة حتى لا تتأذى، ورغم ذلك كانت تتحرى وتستفسر من فترة لأخرى، فأفصح عن شوقي لوالدي، وإنني أمر بعد الانتهاء من الجامعة لأراه وكان ذلك يسبب لها حرجا وارتباكا، تود لو تشارك هي الأخرى بالمصروف ولم يكن ذلك في في استطاعتها، وتابع:

- في يوم وقعت بيدي مذكراته فقرأتها. فرحت بها كثيرا لأنه تبين لي أن والدي يحب أمي كثيرا ولا يستطيع أن يعييش بدونها ولكنها كسرت كلمته لا لعام ولا لعامين بل لعشرة أعوام ، درست على حسابه وحساب تربيتنا .انتظرها طويلا وعندما تخرجت اشتغلت وبقيت بعيدة عنه خارج المنزل وهذا سبب قوي لتعاسته، إلا أنه كان صبورا وفي كثير من الأحيان يدخل المطبخ ويساعدها في تحضير وتقطيع الخضروات عن حب وود وهي لا تهتم .

وفي مرة ارتفع الضغط لديها وفقدت توازنها فهرعنا إليها أنا وأبي و لكنها رفضت المساعدة من باب المكابرة فهي دائما بخير ولا تريد الاعتماد على الغير ولوكانوأولادها ، وكانت مقولتها الدائمة (إنه تعب بسيط) مما يذكرني باقوال جدي:

- لا تشحذ وداً بارداً.

ولا تسأل وصلاً متكلفاً.

لا تنتظر مجئ من لا يجئ..

التفت جاهد إليها وفاجأها بنبرة حازمة :

- هيا انهضي فسوف نذهب للمشفى، أريد الاطمئنان عليك قبل أن أسافر .

عندها رضخت للأمر الواقع واقتنعت أنها بحاجة إلى يد تسندها وشعرنا جميعا بارتياح .

في اليوم التالي سافر جاهد وبقي عامر وسيراء في المشفى لرعاية والدتهما تبين أن الدوار الدوار ناشيء عن انقراص في فقرات الرقبة وتم تحويلها بنفس اليوم إلى طبيب مختص بالعظمية وجراحتها يدعى الدكتور زاهر.

كان شابا وسيما بساما يتغنى المرضى بمهارته وحسن أخلاقه .

وللوهلة الأولى وبعد أن فحص الوالدة وصور رقبتها شعاعيا ووصف لها الدواء قال لها :

- أنت تشبهين أمي كثيرا وأحس بفرح كلما نظرت إليك ، أريد أن أعرفك عليها حتى تشاهدي الشبه بنفسك .ضحكت أمي وقالت:
- إن كان الأمر كذلك فلا مانع .
- سيكون الغذاء في مطعم (النخيل) الساعة 14 .

وفي الموعد المحدد كان الجميع يتناولون الغذاء: الطبيب ووالدته وهي مع ابنها وابنتها .

كان الجو مريحا جدا والمكان جميلا على بساطته لما فيه من أزهار متناسقة الألوان بين شجيرات الصنوبر. كان اختياره للمكان يدل على ذوق رفيع فالبساطة فيه ترافقها ثلاثة: الأناقة والنظافة والجمال أي كل ما يريح الجالس ويشعره بالسعادة والراحة.

تفاجأت سما من الشبه الغريب بينها وبين أم الطبيب وأثناء الحديث بينهما تبين أن هناك قرابة أو معرفة تاريخية بين عائلة سما وعائلة أم الطبيب كما هو الحال عند التقاء العائلات الشامية مما أضحك الدكتور زاهر، فقال معقبا :

"أرأيت لم دعوتك ؟ شيء ما شدني إليك ولابد أن أعرفه".

طلب من والدته وبشكل جدي البحث عن القرابة، فقد أحبها وشغف بها وتعلقت ابنتها به .

فهمت والدته مقصد الكلام وبحثت لدى معارفها المسنين عما إن كان هناك قرابة فكان الجواب بالنفي - وهذا ما أفرح زاهر فهو يريدها لنفسه لأنه على يقين بأنها تتهرب من زوجها فلا انسجام بينهما ولا ود والأولاد قد كبروا واستقلوا - لكن ليس لوقت طويل ، إذ جاءت زائرة إلى بيت زاهر وقالت لأمه : إن ما تسألين عنها هي عمته بالرضاع .

جهير في المشفى!

ماهذه الصدفة الغريبة ؟ زاهر وجهير وجها لوجه في المشفى!

كانوا ثلاثة: عامر وأبوه وأخته ولحقت بهم الوالدة تريد الاطمئنان على جهير فالسكري ارتفع لديه وكذلك الضغط مما أثرعلى قلبه، وكالعادة رفض ان يخبرها عما يعانى منه ، ومع ذلك فقد أعلمها أولادها بالأمر وابلغها عامر أنه في المشفى لإجراء الفحوصات الطبية اللازمة والقيام بالتحاليل والتصوير الشعاعي ، كما وأبلغ الدكتور زاهرتوسطا لمزيد من الاهتمام والعناية بوالده.

بعد أن انتهى الدكتور زاهر من معاينة مرضاه دخل غرفة الوالد وألقى التحية وسأل عن وضعه الصحي فتجاهله الوالد وهمس في سره:

- كنا في ضراس فصرنا في الدكتور زاهر ذي الشعر الأحمر - أنا لا أحب هذا الطبيب، وأشعر أنه متطفل فطبيبي اختصاصه قلبية وسما قد شفيت ، فما معنى دخوله إلى غرفتي وهو طبيب جراحة عظمية؟ ألرؤية سما مثلا؟! وعقب قائلا :
ألم ننتهي من هذه المشاكل ؟ ثم تساءل متعجبا خجلا:
- كأنني أغار؟! إنني أشعرفعلا بغيرة قاتلة تحرق صدري ولكنني لا أستطيع أن أتفوه بكلمة واحدة وإلا فسوف أفقدها إلى الأبد .

جلسة حوار

بعد أن سافر جاهد قال عامر :

- سيعاني أبي من وحدة قاتلة فقد كان يحب جاهد كثيرا ويحاوره دائما كلما سنحت له الفرصة ، فأحببت أنا أيضا أن أحاوره بما يستسيغه من المواضيع :
- لماذا لا تقوم بإعطاء دروس لطلاب الدراسات العليا ؟ إن الحياة رحلة عطاء، وإنك حين تقوم بتغذية عقولهم وشحن أدمغتهم بما لديك من ابحاث علمية قيمة فإنك تساهم في تحسين بيئة العمل و تريح نفسك كما تريح غيرك ، شرط أن يكون هذا العطاء مستمرا حتى يعطي أكله ويحقق أهدافه . وقد قال الكاتب تود هنري في هذا المجال:
- لا تذهب إلى قبرك وأنت تحمل في داخلك أفضل ما لديك ، احرص على أن تموت فارغا.

واسترسل عامر:

وهذا قمة العطاء والتفاني وإن ديننا الحنيف يشدد على مثل هذا العطاء إذ لا يجوز حبس العلوم في الصدور ويقول المثل الشعبي في ذلك (فيد واستفيد)

أما الفائدة فتتجلى في زبدة العلوم المستقاة من أفضل الكتب التي يغذي بها طلابه أستاذ مثلك يا أبي، لا من المعارف الضحلة أو المغلوطة التي تصلنا عن طريق الإنترنيت، وأما المستفيد فهو المتلقي الجاد من طلبة العلم.

فصفق له جهير وقال:

- ماأروعك يا عامر ، لقد صرت مثقفا واعيا وفيلسوفا أيضا.
- طمني عن والدتك يا عامر
- إنها بخير

- والدتك عنيدة جدا.
- وأنت أكثر عندا ، وإني أرى أن خلافكما لامعنى له ولا سبب ، فقد تزوجتما عن قناعة تامة
وعشتما في ود وانسجام كما كانت تقص لنا أمي ، وفي المغترب ساهمت معك يدا بيد، بل
جاهدت لبناء عش هادىء وأسرة مثالية، ثم تابع :
- في الحقيقة لقد رتقت زمنا تمزق ما بين تربيتنا ورغباتها المكتومة خلف جدران المنزل،
ونحن أولادها التي ربت وكبرت سرقنا منها طموحها فتوقفت عن متابعة تحصيلها العلمي
وأصبحت بيننا شبه أمية، إلى أن استيقظت يوما برغبة جامحة تدفعها لمتابعة تعليمها وتحقيق
طموحاتها من جديد، وكان لها ما أرادت . أبي إن زوجتك بطلة.
- لا أظن
فجأة وبدون سابق إنذار فتح الباب ودخل جاهد مبتسما متسائلا: ما هذا الذي لا تظنه ؟
- من أين أتيت أنت الآخر؟ الم تسافر؟
- حدث عطل طارىء في الطائرة ولم يتمكنوا من إصلاحه وبعد فترة طويلة من الانتظار
تعدت 24 ساعة ألغوا الرحلة . بكل الأحوال كانت الإقامة على حسابهم . وللمرة الثانية من
هذا الذي لا تظنه؟
أجاب وقد وجد فرصة لتغيير الحديث :
- كنا نتكلم عن زواجك وعن الفتاة التي تختارها
- اطمئن ، سأتزوج صبية جامعية جميلة أنهت دراستها ومستعدة للاهتمام بالمنزل وبتربية
أطفالها.
- وإن أرادت أن تعمل ؟
- يكفيها الاهتمام بأسرتها وسأهتم أنا بنفسي .
- جاهد، بني إن المسألة ليست بالبساطة التي تعتقدها إذ قد ينشأ عن سوء التفاهم في هذا المضمار
مشاكل لا تنتهي وقد تتجذر ذلك لان لكل كلام مغزاه ومفهومه وتناغمه مع قصد المتكلم والفكرة

التي يريد توصيلها للمتلقي .
- أعطني مثالا
- "من زرع حصد" ، المقصود من الجملة أن من يعمل يحصل على نتاج عمله وهذا ما يجب على
المتلقي أن يفهمه فالموضوع لا علاقة له لا بالزراعة ولا بالحصاد وعلى القائل أن يوضحه تجنبا
لإثارة المشاكل .
قطع جاهد كلام أبيه وقال له:

- والآن متى ستصلح ما فسد بينك وبين والدتي؟ كفى فراقا.
- كأنك تحملني الهم وحدي...إنه سوء التفاهم الذي تكلمنا عنه.
والدي العزيز، نحن نحبكما معا ونحب أن تكونا معا، والاستمرار على هذه الشاكلة يزعجنا كما
يزعجكما وإن كنت أترك هذ البلد فهروبا من المشاكل، وغدا سيتزوج أخي وستتزوج أختي فلا
تجدان مواسيا وتصبح حياتكما قاحلة كالصحراء لا لون ولا طعم لها فالشجار بينكما يحطمنا
ويجعلنا نفكر في الهجرة . ولعلمك لن أبقى هنا سوى يومين آخرين .
سكت جهير ثم أردف قائلا:

- ألا ترى وضعي المزعج؟ هل سمعت بزوجة تهجرزوجها الذي مازال يحبها، لماذا؟ لم أجد حتى الآن سببا يستدعي هذا الهجران، وأنت الآن تحاول أن تضع اللوم عليّ وحدي، وأخذ يحملق في الأرض بحزن أليم ، ثم اضطرب في مجلسه وأعقب قائلا:

- لابد من تغيير النظارات، فنظري قد تراجع .
- سأحاول مرافقتك اليوم لطبيب النظارات قبل سفري وإلا فربما سيراء..
- جاهد! هل تعتقد أنني أصبحت عاجزا عن الذهاب وحدي؟
- لم أقصد ذلك ياوالدي العزيز، إنما هو للاستئناس وللاطمئنان عليك قبل رحيلي.
- حسن لنذهب

البيت الريفي

يعد أن سافر جاهد تكررت لقاءات سما مع زاهر خارج المنزل ، وكانت لقاءات عمل إذ تبرع زاهر بمساعدتها نظرا لشغفه بالأدب والشعر خاصة، وحين حل الليل ولم ترغب بالعودة إذ قررت الهروب من نفسها ومن كل شيء آخر عرض عليها الطبيب زاهر منزلا لصديقه يبيت فيه كلما ضاقت به الدنيا.
قبلت سما العرض وذهبت معه إلى البيت الذي خصص أصلا للضيوف وفي الطريق توقف عند بائع شاورما إذ لا يوجد قي البيت شيئء للعشاء كما واشترى خيارا وبطيخة. تجولت سما في البيت وشعرت بارتياح فكل شيء فيه مريح وجميل ، تحيط به أشجار الصنوبر ، تسمع من حوله زقزقة العصافير و صوت خرير المياه.
أما زاهر فقد افتطع شريحة من البطيخ وقدمها لها قائلا:
- يمكنك قضاء عدة أيام ترتاحين فيها من عبء الأعمال بلا منغصات وتستطيعين التجول في هذا المكان الساحر متى أردت فالمكان آمن وكل ماتريدين متوفر هنا ، وكما لاحظت فإن الببغاء الذي رحب بك عند دخولك المنزل يعتني البواب بنظافته وإطعامه، ولن يصدر منه إلا ما تعلميه له من عبارات.
نظر في الساعة وقال لها وقد هبط الليل:
ليلة سعيدة وإلى اللقاء غدا بعد الظهر .
ودعها وأقفلت الباب وراءة .
شعرت بارتياح لم تشعر به قبلا ، واستعدت للنوم عندما تفجر ينبوع الشعر لديها فقفزت من السرير وبدأت تكتب:

أحلامي المؤجلة ضاعت بالتسويف.

ونهري سوف أعبره بفن التجديف..
قطرات من كلماتي...تخطف أنوار ذاتي

أحبها وتحبني.

أحلامي تناثرت في عرض الفضاء تغني لي وحدي....
تنادي من يجمع نداها....

من يحضر شذاها..

أبعدْ عني كل إحباط....

فقد عرفت طريقي وانتهيت....

خطواتي سهم مصوب للهدف جيدا...

لكنني لاأرى أين صرت.. فالغيوم من حولي....

تقطر فرحا..

ومع هذا أكاد لاأراها...

أحلامي تناثرت في عرض الفضاء تغني لي وحدي....

دمعاتها ألماس نقي ...

وشذاها عطر خفي...

وطريقها شوك طري...

وفي اليوم التالي جاءها زاهر يحمل معه وجبة غذاء لذيذة.
تناولا الغذاء، وشرب زاهر القهوة ، وغادرعلى عجل فلديه عمل جراحي في المستشفى.
أما سما التي شعرت بقوة ونشاط وقد عاد بريق عينيها سرحت بذاكرتها إلى الوراء عندما دخلت المستشفى لأول مرة وكانت تعاني من دوار بسبب رقبتها وبضعف عام فتخور قواها فجأة وترتمي على السرير بلا حراك. وفي مرة طلبوا منها في المستشفى صورة عن هويتها الشخصية فلم تجدها في حقيبة يدها ولكن كتيبا صغيرا وقع منها . أمسكه الممرض وسألها عنه فأجابته دون اكتراث بأنه من مؤلفاتها القديمة الكاسدة. استاذن في الحصول عليه فأعطته إياه على مرأى من زوجها الذي كاد أن يقتلهما بناظريه وتابع قائلا :

- سوف أقيس الضغط قبل أن يصل الطبيب ثم تذكر شيئا فأردف :
هل أنت من كنت أدافع عنها في منتديات النت من معاكسات المراهقين؟،
إنها حروفك ذاتها...
وكلماتك وبصمتك واندفع غلى محفظته وأخرج الكتيب الصغير وشرع

يقرأ:
-أحلام..
طريق...
غيوم....

وسألها هل عرفتني؟ أتتذكرينني ؟

-أنت؟

-نعم، أنا بطل روايتك ..أحلام مجنحة

-هل تمزح ؟

- كلا

خرج الممرض لمتابعة عمله بالمرور على كافة المرضى المسؤول عنها .

أما سما فسرحت بعيدا جدا ، وكانها لاتريد أن تسمع من أحد شيئا وخيل لها أنها تسمع زاهر يقرأ شعرها بصوت خفيض:

أحلامي تناثرت في عرض الفضاء تغني لي وحدي....

دمعاتها ألماس نقي ...

وشذاها عطر خفي...

وطريقها شوك طري...

لقد عرفت طريقي وانتهيت....

واقترفت المغامرة الأولى بقوة..

واقتربت من الهدف النبيل..

لأصعد سلم النجاح

وأصل بهمتي للفلاح..

فجأة رن التلفون و جرس الباب معا واستيقظت سما من أحلامها . بالنسبة للأندرويد كانت المكالمة من جهير أما جرس الباب فكان زاهر الذي وصل من المشفى وكان متعبا جدا ذلك أن العملية استغرقت اوقتا طويلا .
شرب فنجانا من القهوة ونام ولم يستيقظ إلا صباحا .
أما سما فقد أبلغت زوجها بأنها ستدعو الدكتور زاهر ووالدته إلى الغذاء خارج المنزل ردا لدعوته فقبل الأمر ممتعضا وسألها إن كان هو الآخر مدعوا مثل الدكتور زاهر فابتسمت وابتسمت أيضا ابنتها سيراء قائلة: وأنا أيضا مدعوة أليس كذلك؟ وعقب جهير:

- أين أنت ؟ وإلى أين تهربين، ومن أي بلد تتصلين ، وما هذا الغموض الذي تلتفين به ؟! لقد انفصلت تماما

عني وعن أولادك، فلم تجب.

في اليوم التالي كان موعد الغذاء بنفس المطعم .

وبعد الانتهاء من تناول الطعام ضحكت والدة زاهر وفاجأت الجميع بكلامها، إذ توجهت إلى ابنها وقالت له

- عليك أن تقبل يد عمتك أو أن تشكرها على الأقل على هذا الطعام اللذيذ .
- عمتي!! من عمتي؟!
- إن سما عمتك بالرضاع.

ارتبك زاهر كثيرا فلم تعجبه النتيجة التي توصلت إليها والدته فكبت مشاعره وأظهر سرورا مصطنعا بأن صارت له عمة.

أما جهير فقد انفرجت أساريره وفرح في سره فرحا عظيما.

اختفاء مريب

في اليوم التالي عاود الدوار لسما فنزلت إلى المشفى دون أن تخبر أحدا سوى الدكتور زاهر .

هناك سمعت همسا بأنه يوجد علاقة بينها وبين الدكتور زاهر فخجلت من نفسها وضاقت بها الدنيا .

عندما صار موعد الحقنة دخلت الممرضة غرفتها فلم تجدها، بحثت عنها في الأماكن القريبة ولم تجدها ، توسعت في البحث فلم تجدها. عندها أعلنت الممرضة المسؤوله عن رعايتها عن اختفائها وبلغت الدكتور زاهر الذي بدوره ابلغ زوجها وسأله عن الأماكن التي يمكن أن ترتادها.

شرعوا جميعا في البحث عنها في كل مكان دون جدوى .... إلى أين ذهبت؟ ولماذا اختفت ؟ أسئلة لم يجدوا لها جوابا .

مضت أربع وعشرون ساعة ولم يسمعوا عنها شيئا . وعلى سبيل الصدفة قرأ زاهر عن مسابقة أدبية أجريت في فندق سميراميس تقدم لها عشرة أدباء كان من بينهم سما الشقراوي فاستفسر عن النتيجة وعلم أنها ستظهر في الساعة السادسة من مساء يوم الغد الواقع يوم الاثنين . وفي اليوم الموعود ذهب زاهر وسيراء وحضرا الخفل الذي انتهى بإعلان فوز سما بالمسابقة بدرجة امتياز مع جائزة مالية قدرها 500 دولار استلمتها بشيك . وهرعت سيراء إلى والدتها تهنئها بالنجاح وتهمس بأذنها : لقد توفي عمي وورث أبي كل ممتلكاته وستنحل عقدنا جميعا.

فأعقب زاهر قائلا: لقد انتهت الحدوثة

فأجابته سيراء: بل ابتدأت

أجابها بابتسامة ملغومة " ماذا تقصدين يا حلوة ؟ أنا ابن عمتك وعمري خمس وثلاثون عاما ،أتقدم لخطبتك

وأنا مطمئن أنك ستوافقين والمهم أن أحصل على موافقة والديك.

فقالت: لقد حصلت

وبعد قليل رن جرس الباب فهرع جهير ليفتحه ودخلت السعادة التي انتظرها طويلا .

23-مسمار شوكورول

"خفايا الواتس"

د. ريمه عبد الإله الخاني

رواية

مقدمة

من ذا الذي يقول بأن شوكورول لا تستطيع أن تتلصص على أصحاب الأجهزة الذكية كالحواسسيب مثلا أو غيرها ؟ شيء عجيب! أليست هي الصانع أو المهيء لمثل هذه الصناعة ؟ أليست هي من تسعى دائما إلى التطوير الفني ؟ إنها في سباق مستمر مع منافسيها، لذلك فإنها تضطر إلى أن تتلصص عليهم إما بالتجسس البشري أو التكنولوجي .

مخطيء من يقول غير ذلك ومخطيء من يخشى هذا التلصص فلكل داء دواء ولا بد من إيجاد حل واختراع مضاد يمنع ويحمي .

لذلك يجب على الخائف والمحبط أن يرمي ثوب الخوف والإحباط بعيدا وأن يدرس ويتحقق ويتمحص ويلجأ إلى إجراء التجارب وتفعيلها بما يرتد بفائدة ونتائج إيجابية متضمنا سبر ذاته من الداخل ، إذ من الأفضل له أن يفحص قدراته أولا ليتعرف على نفسه على الأقل وإلا تكسرت صورته كما تتكسر الأمواج على الصخور حيث ترتطم بها لتطويها وتدفنها في القاع ما بين طيات سنين العمر، وتتكسر معها ألوان قوس القزح الزاهية لتتحول إلى لون رمادي كئيب لم يسبق له أن عرفه في حياته لأنه مرتبط بمعرفته لنفسه، لكن حين يتعرف على نفسه ويكتشف مجاهلها تعود الأضواء إليه من جديد ويستطيع عندها أن يكشف المقصود من هذه القصة.

المؤلفة

ولغاية تاريخه لم يعرف أحد كيف اختفى حاسوب الدكتور زاهر[8] ، وكيف أعيد إلى مكانه بعد ساعة من الزمن وكيف انتشلت من حاسوبه 1000 معلومة أساسية أخذت من أبحاث هامة وسرية كان قد حصل عليها واستأثر بها ولم يعرضها على أحد ، كما أنه قد كبل حاسوبه بكلمة سر غير عادية وغاية في التعقيد حفاظا عليها والأسوأ من ذلك أن اللص لم يكن لصا فحسب لأنه حذفها من الحاسوب ومحاها عن آخرها.

ترى من هذا اللص الذي يعرف عنه كل شيء ويعرف حاسوبه ومحتوياته؟!!

انطلق الدكتور زاهر في البحث عن هذا اللص الذي دخل إلى الغرفة خلال الساعة التي ترك فيها مكتبه مستعينا بكلب ذكي ومدرب تدريبا خاصا لمثل هذه الأمور ولكن دون جدوى. فما كان منه سوى أن يدعي أنه قد وجد المعلومات المفقودة في ملف ما في نفس الحاسوب .

وفجأة ظهر الدكتور زاهر في شركة شوكورول في الإمارات ، أي في نفس المكان الذي كان يعمل فيه زميله سابقا واسمه ضيا والذي حاول مرة أن يتقمص شخصيته لبعض الوقت، لكنه لم يجده لا في الشركة ولا في غيرها من الأماكن وكأنه اختفى. وعندما التقى بوالدته نفت وبقوة تواجده في الإمارات بعكس ما صرح به زملاؤه وأفادت بأنه ذهب إلى دمشق لزيارة والده بطلب فوري من الأخير .

عاد الدكتور زاهر إلى دمشق واجتمع بضيا الذي أكد له بأنه لا يعرف شيئا عن هذا الأمر،وغضب غضبا شديدا إذ ألمح له زاهر أن السارق قد دخل المنزل ، حيث أخذ الجهاز وسرق المعلومات منه.ولكن من هو هذا المجهول الذي فعلها بهذه المهارة الفائقة وفي أي حاسوب نزلت فيه هذه المعلومات ؟!! تساءل الدكتور زاهر متعجبا مستغربا.

أما ضيا فعقب قائلا وهو يبتسم: إنه (إدوارد سنودن) **Edward** Snowden[9]، ذاك الجاسوس العالمي المزدوج الذي يتجسس لحسابك ويسرب معلوماتك إلى غيرك، وهو

---

[8] راجع سيرته الذاتية في رواية: احلام مجنحة.

[9] إدوارد سنودن

الذي يسرق الكحل من العين ويأتيك بالسارق ويعيد إليك المسروقات ، وتدفع له ما يفوق المليون دولار وتبقى المعلومات معه إن شئت أو أبيت، لأنه قادر على الحصول عليها وقت يشاء ليبيعها لمن يطلب أو يعرضها على من يستفيد منها وترجع أنت إلى المربع الأول. ليس هو الحل المثالي أبدا، الحل أن تكون شيئا منه.

كيف مات أبي؟

كانت نافذتي تطل على ذلك الجبل الأخضر الجميل الذي قبل راضيا بل سعيدا أن تغرس أشجار الغابات في جسده حتى ولو كان ذلك على حساب عذابه وآلامه ، يستقطبهم بجماله فيهرعون إليه يكسرون صخوره ويقلعون أشجاره ليبنون بيوتا جميلة تحوز على الإطلالة دون الاهتمام بصحة هذا الجبل ، وإنني كلما تأملته أجد شيئا منه في نفسي. لقد استقطبتني الدراسات العليا كثيرا وحين حصلت عليها وجدت نفسي في سفح الجبل فلا بد أن أرتقيه ولو على حساب ذاتي وإذا كانت الشهادة هي مفتاح الحياة فأنا فقط من سيدير المفتاح لتنفتح البوابة على الدنيا الجميلة ولن يكون ذلك إلا بالاجتهاد وقبول ما يتخلله من صعوبات وآلام بصبر ورضى.

وفي يوم ما وأنا سارح في تأملاتي نادتني أمي فاستيقظت من أحلامي ووقع من يدي الأندرويد، والحمد لله أنه لم يكسر ولكنني كسرت صحنا في المطبخ مما أثار غضب أمي.

-كسرتِ الصحن يافهيم..أين عقلك . تركته عند شوكورول ؟.لو تجسدت شوكورول شخصيا أمامي لمزقتها إربا.والله صارت تسبب لنا مشاكل، لاتصدقوا كل شيء يصدر عنها فالمصلحة وحدها هي التي تكتب.

-آسف ماما..فعلا آسف.

-ابتعد عني ، أنت سارح في ملكوت نفسك. .يا للإزعاج، متى تنتهي من شطحات خيالك ؟؟، الكلام الذي لايترجم إلى عمل لاقيمة له... وهو جعجعة بلا طحن وهذيان سكارى.

إدوارد جوزيف سنودن أمريكي ومتعاقد تقني وعميل موظف لدى وكالة المخابرات المركزية، عمل كمتعاقد مع وكالة الأمن القومي قبل أن يسرب تفاصيل برنامج التجسس بريسم إلى الصحافة. في يونيو 2013 سرب سنودن مواد مصنفة على أنها سرية للغاية من وكالة الأمن القومي، منها برنامج بريسم إلى صحيفة الغارديان وصحيفة الواشنطن بوست. ويكيبيديا.

سلطت والدتي مدافعها على رأسي مواعظ ودروسا لا تنتهي...جلستُ على الأريكة حزينا لما فعلت، فقط لأنني أزعجتها ، وفجأة دق الباب فكانت جارتنا الصغيرة تريد رغيفا من الخبز. أعطيتها الرغيف بسرعة وأغلقت الباب وراءها حتى لاتنقطع سلسلة أفكاري فهي عزيزة علي جدا.

وعادت أمي لترتيب المطبخ وعيناها الدامعتان تقتلني.

- ماما ، أتبكين؟

- تذكرت أباك

-كيف مات؟

لم تجب ثم استأنفت:

- آن الأوان لتذهب إلى الحلاق يا ضيا، أنت بشعرك هذا كالخنفس ، هل من الضروري أن أذكرك بهذه المهمة ؟!!!

- حاضر، سأذهب

كان منزلنا في الجادة العليا من الجبل الأخضر وكنا ومن يريد زيارتنا نعاني الأمرين في الصعود وفي النزول فالمواصلات لا تصل إليه بسهولة ، ولكن لا بد من قص شعري إرضاء لأمي. ارتديت ملابسي على عجل وسألتها إن كانت تريد أن أجلب لها بعض الأشياء معي ، فقالت:

- طبعا أريد . أريد باذنجانا وفليفلة حمراء حارة وحلوة وجوز وزيت زيتون لأنني سأقوم بتحضير مؤونة الشتاء من المكدوس و المخلل ، لذلك يجب أن تمر على بيت أم أحمد لتساعدك في اختيار الثمار والجوز وأحضرها معك لتساعدني .

- حاضر. صفقت الباب خلفي ومشيت بأقصى سرعة فمشواري طويل ، وهمست لنفسي

سأذهب إلى الحلاق أولا فهو قريب من هنا ثم أذهب إلى بيت أم أحمد ثم إلى السوق وأعود. ومن حسن حظي أنني اجتمعت بأم أحمد في طريقها إلى السوق فأوقفتها وأخبرتها عن مشروع الوالدة فوافقت واشترطت عليّ أن تقلنا سيارة فابتسمت موافقا . أوصلتها، وقلت لأمي مستأذنا :

- سأمضي إلى دكان العم فؤاد ، لقد أحضرت لك كل ما طلبته، وأم أحمد عندك، وهذبت شعري كما تحبين.

ما إن رآني العم فؤاد حتى ناداني :

-آه منك يا **ضيا**..تعال ورتب معي دكانا لن يترتب أبدا.

ضحكت وقلت له:

-على الرأس والعين، من أين أبدأ؟

- من الرفوف ، يلزمها تنظيف من الغبار وترتيب لائق للألعاب .

-حسن ، انظر نحو الباب فهناك زبون قادم وولده الصغير معه ، فهل أبيعه أنا أو أنت؟

- أنت ، كن لطيفا مع الطفل حتى نكسب الزبون .

- حاضر.

اشترى الزبون لعبة لابنه وذهب.

- قم لبيتك يافتى انتهى الدوام اليوم ، أو أحضر لنا شيئا نأكله ثم نستكمل ترتيب المكان معا.

فأجبته فورا :

- سأبقى معك ، فأم أحمد وأمي تصنعان المكدوس فلا لزوم لي معهما.

فجأة برقت وأرعدت فخرجت إلى الباب لأرى أن السماء قد تلبدت بغيوم سوداء وازداد الرعد قوة وبفعل العاصفة أنزلت السماء كل ما لديها من أمطاردفعة واحدة ، وبوقت قصير تحولت إلى سيول مخيفة ، فهرعنا إلى وضع أكياس الرمل أمام الباب لمنع المياه من التسرب إلى المكان حتى لا تصل إلى البضاعة فتفسدها ، وبقينا فيه حتى انقطعت المطر وابتلع سيولها بطن الأرض. عندها خرجت من الدكان واشتريت طعاما لكلينا .

جلسنا نأكل ونتجاذب أطراف الحديث تارة عن زوجته التي تركته منذ زمن طويل وتارة أخرى عن أولاده . كان حديثه شيقا فبقيت أسمع حكاياته حتى الغسق حيث قاطعنا رنين الخلوي وكانت المكالمة من والدتي:

- أتريد الليلة أن تبيت في دكانه ؟

ضحكت وقلت له سأذهب إلى المنزل حالا وفي المنزل قالت لي:

- لقد ساعدته وانتهى العمل ، فلماذا تبقى عنده هذا الوقت الطويل؟ إنه رجل ثرثار، يحب الكلام ويحب الجدل، إنسان غير متعلم والجلسة معه تضر ولا تنفع.

ابتسمت موافقا فوالدتي تتفهم الأمور جيدا .

أريد حلا..

في منتصف عام 2013، تغير لون السماء في بلادي فمن أزرق جميل إلى رمادي مشوب بلون أحمر مخيف ، واختفى الهدوء المريح ليحل محله صوت يرعب الكبير والصغير، إنها آلة الحرب تقتل وتدمر بأسلوب عشوائي وحشي.

-لماذا ؟؟؟

لتأتي الردود مختلفة متغايرة متلونة تجمعها جملة واحدة لا غير :

" بلدنا غني واستراتيجي الموقع ومحط أطماع العالم "

ثمانون دولة هجمت علينا هجوما صاعقا ، تريدنا جوعى وحمقى لتتمكن من سرقة خيراتنا ثم لتنعتنا بالجهل والفشل وتعمل على تفكيك الأسرة الواحدة، كل في طريق... من أين تدفق هؤلاء المجرمون ، من أين أتوا وأين كانوا مختبئين؟! فإن وجودهم المفاجئ يذكرني بيأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض.

أسئلة كثيرة طرأت على بالي ولم أجد لها جوابا، وأصبح الآندرويد رفيقي الدائم في حللي وترحالي أتابع من خلاله الأحداث والأخبار الصحيحة منها والمغلوطة على السواء لأن الأمور قد اختلطت ببعضها البعض . لذا كان ذهابي للعم فؤاد يحسم كل شكوكي..أحترم تفكيره الذي وفق بين الماضي والحاضر...

-كل من جُرت قدمه للنزاع غبي... كم تشبه والدك جدا...

-ماله والدي؟.

-لاشيء..

تلك الاشيء التي شدتني للعم، وكأني في نزال لمعرفة الحقيقة...

أما والدتي فإنها لم تنس مطلقا أن تحضر لي العشاء وتدعوني إليه كل يوم. كانت قلقة على صحتي التي أصبحت تتدهور يوميا، أما أنا فكنت قلقا على مستقبلي ومستقبل والدتي فليس لنا وارد سوى التقاعد الذي ورثناه عن أبي، ذلك لأنني لا أعمل . وفي يوم ارتديت ملابسي وقلت لوالدتي :

- سأذهب للعم فؤاد . فأجابت بغضب
- ألا يوجد لديك من هو أهم من العم فؤاد؟ أليس لك أصحاب أفضل منه. احصر ذهنك جيدا .
- سأفعل.

رن الأندرويد بقوة، فهرعت إليه متفائلا وكان الدكتور زاهر على الطرف الآخر .

- مرحبا يا ضيا ، أنا الآن عند أختي وبيتها قريب من بيتك ، سأعرّج عليك لنتحدث بشأن المعلومات المسروقة وإمكانية الكشف عن السارق واسترجاع ما سرق، كما سنبحث في أمور أخرى تهمك كما تهمني
- أبشر، فأنا بانتظارك.
- بادرت والدتي وقد فاجأتها:
- -لماذا لاتتكلمين عن والدي كثيرا كلما سألتك؟
- كل شيء في وقته جميل...

ذهبت كالعادة حانقا، لكنني ابتعلت لساني خوفا على مشاعر والدتي الرقيقة.وفي عقلي وقلبي مائة سؤال، خاصة عندما كانت والدتي تمسح دمعة هاربة من عينيها.

مُنْية تبحث عن عمل..

منية الآن تبحث عن عمل، بعدما بقي زوجها عاطلا ، كما تفعل معظم الشركات المرتبكة، وسط تلك الأحداث المتلاطمة..خاصة إن كانت تعول عائلة كبيرة وأطفال صغار..لاأظن أنها ستسافر كما فعل معظم الناس من حولنا...فمن الصعب جدا، أن تغيب الأم عن المنزل فهي أم البيت ودعامته الأولى كما قالت أمي في تلك الليلة..

- المهم عزيزتي منية، قولي الحمد لله، أنه مازال هناك مانأكله حتى نجد حلا ما..

- كانت تقضم قطعة صغيرة بسرعة من تلك التفاحة المقطعة شرائح دائرية كما كنت أحب، وتكمل حديثها، شهيتها مفتوحة تثير إشارات الاستفهام الغائبة عني، كان لديها قصص تشبه الروايات، ورغم أن حديثها لن تغدو ألوانه أفضل من ألوان منزلي الباهتة،إلا أنني كنت أستمع إليها بشغف، وكأنها قصتي أنا، أو أنها تواسيني بحالها الجديد التعس، قالت:

-إنه وطن يمكث في العناية المشددة منذ مئات السنين، وكل حقبة مغامرات جديدة مع الزمن، منذ أن فصل عزيز مصر "محمد علي باشا" الدين عن الدولة وتفرنج، عندما قالتها فهمت أنني مقبلة على حديث يحتاج مني تركيزا كبيرا.

-لاأحب حديث السياسة على كل حال..

-ليس حديث سياسة، بل وضع نقاط على الحروف...

كانت أمي تحفظ كل شاردة وواردة من حديث من حولها، تستمع كثيرا وتتحدث قليلا...وكأنها تحسب ألف حساب لكل زلة لسان وتفضل اختصار كل حديث...

-عندما يكون الوطن في حالة حرجة، فلاتتوقعي أن تحصلي على عمل يرتق فجوة كبيرة في حياتك الصعبة...لذا أفكر جديا بالسفر..

-لاتفعلي..لمن تتركون البلاد؟

-وهل لديك الحل لمشكلتني سوى المواساة؟

هناك الآن من يسرق بيتنا.. ويعطينا خيمة!!!؟. لقد قالها زوجي يائسا :

-ارحلي إلى هناك ..فأقربائك في تركيا.. ومنه تنتقلين لألمانيا...وسنرتب الأمور معا بعد ذلك...

عندما انتهى الحوار بينهما..أحسست وكأن والدي فكرت بالسفر هي الأخرى، ولكن إلى أين ؟

بات علي الذهاب إلى منزل زاهر فهي مسافر بعد عدة أيام ولن يعود قبل مضي شهور طويلة...

كان منزله في حي برزة قرب المركز الثقافي هناك، كم كنت أجد صعوبة في نزول الجادة العاشرة من حي المهاجرين لأصل إليه...لكنني أعلم جيدا، أنه لن يناديني إلا لو كان الأمر مهما جدا.

وحدي أنا وزاهر

-لقد حاولت استعادة بعض ملفات من حاسبي، لكن الأمر متعب جدا، فلن تخرج سليمة جميعا، ولكن هي محاولة، أرجو أن تساعدني في ذلك..

-وكيف؟

-خرج لي ملف لم أتخيل أنه عندي مكتوب في اسم والدك الراحل..

-والدي؟

-نعم في برمجة غريبة، مقفولة بكلمة سر..لم أتمكن من فكها، ولكن عليك مساعدتي في جلب ملف لأبيك ورقيا مهما كان من الأمر ربما يوضح شيئا ما عما كان يفعله، ألم لكن مبرمجا ماهرا؟ .

-نعم نعم..

-وكان يعمل في شركة غمطت له حقه عندما تركها غير آبه بالنتيجة..

-صحيح..

-هنا علينا البحث..فملف والدك من الغريب أن أجده عندي..ماللذي أتى به إلي؟.

-فعلا..

-لاتفتخ فمك كالمشدوه..أريد مساعدتك,ضاعت ملفاتي ولأبوك سهم فيها ..رحمه الله..

-شوقتني أكثر لمعرفة الأمر..

-هل تعدني؟

-طبعا ولكن بعض وقت رجاء..أمي أقفلت كل مايمت لوالدي بصلة ومن الصعب الوصول إليه...

-أظن أن والدتك تعرف شيئا ما..هل يمكنها مساعدتنا؟.

-أظنه صعب ولكن غير مستحيل..

-حسنا بعد أسبوع أكون قد صعدت طيارتي وسافرت أعطني شيئا أعمل لأجله لأعرف أين أنا..

-حسنا حسنا..

تركت زاهر وقد كان على غير عادته في الكلام..كان يتلذذ بالطرافات وخفة الدم..كان واجما وفي فمه مائة سؤال...ألجمني فما استطعت التحرك بوجوده ولا تحضير قهوته المفضلة التي كان يحبعا من يدي..

-كابتشينو بالحليب لو سمحت..

بات الأمر جديا للغاية ...أدعو الله أن يلهمني الصواب..قسما لاأريد أن أزعج والدتي ولكن... لم يعد الأمر قابلا للسكوت..

عندما جاءنا اتصال غريب من فادي ابن أخ العم فؤاد، نثر حولنا إشارات استفهام جديدة ملؤها الفضول والاستغراب والرغبة في معرفة السبب..

-أريد اللقاء بكما قريبا جدا...

فادي وزاهر وضيا...

-من هذا الذي قال أننا سنستعين ب (إدوارد سنودن) Snowden **Edward** [10]؟ وماهذه القضية المهمة التي تبحثان عنها معا؟ ماهي الملفات بالأحرى؟ لاتلفتا الأنظار فيتربص بكما غريب لاتعرفانه...

معكم فادي صنوبر طالب في كلية المعلوماتية..يمكنني مساعدتكما في استعادة جديدة للملفات الضائعة وأحسبها غير ضائعة..

نظر زاهر وضيا وقد فتحا فمهما بدهشة، وقد كان ثلاثتهم في مقهى ال Read house في العاصمة في مجمع شامينا سنتر.قطع الدهشة فادي من جديد وطلب كابتشينو للجميع دون استئذانهما...

كانت الجلسة حقيقية بالنسبة لزاهر وضيا، وافتراضية لفادي..كتب زاهر لضيا على ورقة مررها دون أن يراها فادي:

-ابحث جيدا عن المدعو فادي، فنحن في زمن العجائب والدهشة.

هز برأسه ضيا موافقا، رغم أنه أعاد المراسة قائلا:

-هؤلاء لن تجد عبر النت شيئا عنهم..فقد يكونون ممن يخطرون عبر الشبكة بأسماء مزيفة..

---

[10] إدوارد سنودن

إدوارد جوزيف سنودن أمريكي ومتعاقد تقني وعميل موظف لدى وكالة المخابرات المركزية، عمل كمتعاقد مع وكالة الأمن القومي قبل أن يسرب تفاصيل برنامج التجسس بريسم إلى الصحافة. في يونيو 2013 سرب سنودن مواد مصنفة على أنها سرية للغاية من وكالة الأمن القومي، منها برنامج بريسم إلى صحيفة الغارديان وصحيفة الواشنطن بوست. ويكيبيديا.

جرى حديث طويل بين فادي وزاهر وضيا، تبين مدى خبرة فادي في ثنايا الشبكة، ومعرفته جيدا بكل أسرارها، كيف يبحث في المخزنات السحابية، وفوق السحابية، ومن المحتمل أن اهتمامه خدمة لنا وله...فتعاريج الشبكة تجعلنا نشك حتى في انفسنا..أسرعت بلقاء العم فؤاد فقد غدا الحرف منه الآن غال الثمن...فتحت لي الباب ابنته المتزوجة قد بدت أنها على غير مايرام :

-تفضل بالدخول، إنه مريض.

-سلامتك ياعمنا العزيز...

لم أكن أدري كيف أدخل الموضوع في حالته هذه ..

-ماذا به؟

-هبوط مفاجئ، فهو مصاب بالسكري..ويبدو أن الكورونا أوميكرون أصابته من الزبائن الكرام...ومرضى السكري حساسون لأي مرض.

-سلامته ألف سلامة.

كانت ابنته كما كان يسرب لي ذات كتابات متفرقة عبر النت، وتحمل في فكرها بعض إضاءات جميلة لم تستثمر جيدا كغيرها من المشاركين الذي لايعيرون انتباها لمالديهم من مواهب.بادرني العم مقاطعا:

-أعرف ماذا تريد أن تسألني..وقد زارني فادي البارحة...وأنه سيلتقي بكم..

-نعم تماما

-لديه المفاتيح ..ويمكنه أن يكون هاكرا مختفيا..يدري بأن تلك الملفات التي كان من المفترض بيعها سرقت من قبل شركة معروفة لن أفصح عنها خوفا عليك..ولكن المشكلة ليس باسترجاعها..بل بما طرأ عليها من تطور بعد ذلك الذي بات ملكا لهذه الشركة..لذا أعتقد كما قال فادي، أن إضافة مهمة عليها تجعلك بمرماهم من جديد..فيبحثون عنك أو عنكم...

تلك الخلاصة التي أدهشتني من جديد..شربت فنجان قهوتي بسرعة..وعزمت على زيارته من جديد..فالعم أبو فؤاد على بساطة نفسه، تواق للمعرفة متفهم لكل أسباب التقدم بطريقته الخاصة.

همست لي جنى قبل خروجي :

-يمكنني مساعدتكم ولكن طون ذكر للتفاصيل.

-كيف؟

-لاعليكم جميعنا لنا اهتمام من قريب أو بعيد بتلك التقنيات فقد أعطني رأس الخيط لأبحث عن تحديثات ملفاتكم، ولاتسألني كيف من فضلك.

خرجت مجددا الدهشة..موقنا لأننا من الذكاء والتهميش الممتاز مايجعلنا نحث الخطا للقمة ولكن على أن نجد من يحملنا إليها دون حجب..

فادي من جديد

أرسل فادي لنا جزءا من ملف على أن نتعرف على أصله قبل التحديث..كان برنامجا خارقا وملفات برمجية مهمة يمكنها حماية التخزين فوق السحابي والذي يمكن لكل مستخدم حجبه عن مرمى أعين المخزنين..ومستقبلاتهم وسحبها لسحبنا الخاصة، أرسلته لجنى بدوري بعد اطلاع زاهر عليه وموافقته بأنه قريب الشبه كثيرا، حيث لم يفصح فادي بطريقته في الحصول عليها وهذا ماأثار استغرابي...ليقفز زاهر قائلا:

-فادي يعمل لحساب شركة أمن وأمان ومن الطبيعي أن يصل إليها فلديه أجهزة خارقة مارقة...كانت جنى تعمل في الخفاء وترسل إلينا معلومات حديثة عن فادي، وعن عمله ومهاراته وخبرته، وكنا نعمل على تحديث ماوصلنا بطرقنا الخاصة، وقد مضى شهر على ماحصل، حتى أضفنا أنا وزاهر إضافات بسيطة للبرنامج ليس ذا بال، وأعدناه لفادي قائلين:

-هذا الملف الأصلي وليس ماأرسلته لنا..

صمت وطال الوقت ولم ينبس بكلمة...حتى تواصلنا بجنى مستفهمين:

-لقد أدهشه ماأرسلتم له...كم واصلني من العم فؤاد وأظن أن هذا يكفي ليبين لكم أن أصل الملف لم يعد بعيد المنال...وأشير إليكم بتعاون فراس الذي يعمل في شركة مشابهة لتلك فقد يكون له تعامل معها بطريقة ما..هذا ماوصلت إليه فجميعهم هناك في دبي...

وفعلا حاولنا الوصول إلى فراس قائلا:

-قضية لاتهمني ماذا أفيد منها؟

-أن تصبح الملفات لك..

-إن كانت سرقت فقد سرقت أسرارها معها لاشأن لي بها...

-هناك بقية منها لدينا..نريد أن نعرف أين باتت فقط...ولك أن تحصل على بقيتها لتنال بها تحديثا يهمك ولنا بعض مكافأة..

-موافق

ختامنا مسك

لقد رحلت منية..وأمنت عملا لزوجها في ألمانيا، وانخرطت في الحياة هناك ولم تنس من تركتهم ..ولكن ابتعد التواصل أياما وشهورا...

والآن وبعد أن وصلنا إلى أوراقنا المهمة.. وبعد سنة من تاريخه..لم تعد تهمني القضية بقدر التحديثات التي أجراها فراس مع طاقمه البرمجي..فعجلة الحياة تدور بقوة وإن لم نركض وراءها يتفلت منا كل شيء...يسعدنا الآن أننا نعمل لصالح شركة فراس، وأن ماينقصنا من معرفة برمجية باتت بهمتنا وتشجيعه أمر يبعث على الأمل والكسب المشروع، وأن من اتهم بالسرقة أكثر من طرق لأن ماحصلوا عليه نتفا تطورت ولم تعد كما هي..وأن الامن والأمان إن لم نحكم السيطرة عليه ضاع منا جهدنا...أما فادي فقد بتنا نستعين به حسب مصلحتنا..فلايوجد في عالمنا عداء بل تكامل معرفي علينا أن نجعل من خلاله الحياة أجمل.

قامت أمي بعمل مائدة عامرة بالطيبات وعلى رأسها المكدوس الي يحبه فراس القادم من البعيد...مع فادي.. ودعت جارتها منية وزوجها والتي تبين فيما بعد أنها وجنى متعاونتان جدا عن بعد..العالم بات صغيرا عبر التواصل الشفاف، تحدثنا كثيرا عن استثمار تلك الشابكة لأغراض الرزق وبهمة الشباب بل أكثر، كانت فعلا مائدة مدهشة، وكأننا كنا نودع العم فؤاد الذي قال سعيدا:

-الآن لو مت فلن أحزن كثيرا، لأن لدي عائلة علمية أفخر بها جدا..الحياة تكامل وليس تنافر وعداء، لقد حققتم ماكنت أصبو إليه، وإن كان مرض السكر قد قضى على والدك..بسبب فقدان ملفاته البرمجية، فقد كنت خير خلف لخير سلف ولم تقف عاجزا عن التقدم وتحاوز المحنة.

تمت

سيرة ذاتية

باحثة وأديبة حائزة على دكتوراه في الأدب الإنساني والنقد الحديث

عضو الاتحاد الدولي للغة العربية

عضو الاتحاد الدولي للغات والترجمة

عضو مركز العلوم التخصصي فرع الإبداع

عضو في جمعية الإبداع

عضو المجلس العلمي بمجلة سيبويه الماليزية.

عضو اللجنة العلمية بمجلة تكامل الجزائرية

محاضر معتمد بجامعة الريادة الافتراضية

2017 حتى 20عمرها على الإنترنت

مؤسس موقعي فرسان الثقافة وجوالك التقنية و مدير

تحرير مجلة فرسان الثقافة الإلكترونية

لها العديد من المقالات المنشورة على الإنترنت من خلال العديد من الصحف المحلية والعربية ، فتكتب:

المقالات والقصص والشعر بجميع أشكاله والأفكار والروايات ودراسات الأدب.

ورقة بحثية، تحتوي الكتب على مجموعة 40 كتاباً وأكثر من 30كتبت أكثر من متنوعة من التخصصات الأدبية ، لكني تخصصت أخيرًا في البحث،تعمل حاليا على بحث يحتاجه الطالب وهو غير موجود بل بحث جديد في عالم النقد والأدب عالمنا متجدد باستمرار[11]

[11] رابط الأبحاث :
https://independent.academia.edu/RimaAlkhany